عزيز مطيع

اغتصاب على سرير الوطن

رواية

عـزيـــــز مطيـــــع

اغتصاب على سرير الوطن

- روايـــــة -

الحقوق محفوظة للكاتب

عنوان الرواية: اغتصاب على سرير الوطن

المؤلف: عزيز مطيع

تصميم الغلاف: الفنان سينجي شديد

المطبعة: قيد الطبع

الهاتف: 00212.0615.20.88.26

للتواصل مع الكاتب: https://www.facebook.com/aziz.mouti.71

رقم الإيداع القانوني: 2018MO4229

ردمك: 978-9920-36-390-7

الإهداء

إليك أنت يا من وضع الإله الجنة تحت أقدامها.. فكم تمنيت أن أهديك رحلة إلى بيت الله الحرام... ولكنهم للأسف جعلوها على البؤساء أمثالنا محرمة كاسمها... ولأنّ ابنك لا يملك في هذا الوطن رصيدا سوى لسانه.. فقد قررت أن أهديك هذه الرواية.. وأقول لك انتبهي.. لأنّها ملطخة بالدماء..

إلى من تشاركني الحياة والفراش والرغيف... واصلي الابتسامة، فابتسامتك هي المصباح الذي ينير لأسرتنا الطريق...

إلى الأميرين الصغيرين أيمن ومحمد سامي، ودون أن أنسى ذاك الجنين الذي يستعد في صمت كي يطلّ على هذه الحياة.. أنتم الغد وأنتم الحلم.. أنتم الحياة حين تتوقف في جسدي الحياة..

❖❖❖

اغتصاب على سرير الوطن

الفصــل الأوّل

(دعني أكتب.. دعني أتكلّم.. أرجوك سيّدي لا

تمنعني من الكلام، فأنا لا أملك غيره)

أعرف أنّ ما سأكتبه سيزعجك كثيرا سيدي.. فقد قرأت في كتب عديدة أنّ من يحكمون يكرهون أن يتحدث واحد من الرعية عن شؤون الحكم، وأنّك ستصرخ في وجهي من أنت حتى تتطاول على أسيادك.. لكنني سأكتب رغم ذلك.. ليس لأنّني عنيد كما يصفني كل من يعرفني، ولكنني سأكتب فقط لأنّ إسفنجة سرير الوطن لم تعد تسع مزيدا من دماء بكارة الشعب، فقد امتصت ما فيه الكفاية من الدماء حتى تشبعت. أكتب لأنّ الدماء بدأت تتسرب مُشكّلة جداول يراها الآخرون..

نعم.. فعلا.. هؤلاء الذين فكرت فيهم الآن أو تبادروا إلى ذهنك هم الآخرون الذين أقصدهم. هؤلاء الذين يمسكون الريمونت كونترول في الطرف الآخر البعيد من العالم، ويمارسون لعبتهم المفضلة، لعبة (البازل) لعبة جميلة ومشوقة، لكنها تكون أكثر تشويقا عندما تكون القطع التي يلعب بها الإنسان أوطانا، بحدودها وبحارها، وديانها وجبالها، مبانيها وناطحات سحابها، بشوارعها وحاناتها وأرصفتها، بل وبسكانها أيضا، نساء ورجال وأطفال، وحتى العجزة منهم داخلون في رقعة اللعبة. إنها تتحول إلى لعبة دامية سيدي. لهذا أرجوك دعني أتكلّم حتى لا يصبح وطننا قطعة بازل بين أيدي هؤلاء الغرباء مثل سورية واليمن وليبيا، فكثيرة هي أوطاننا العربية التي تحوّلت إلى لعبة بازل كل يحاول ترتيبها على هواه..

سأجري فقط عملية عَصْر بسيطة لسرير الوطن كي أخرج ما بداخله من دماء كثيرة متعفنة، وبعدها يمكنك أن تترك السرير مسرحا لمزيد من جرائم الاغتصاب، أو تغيّر دوره وتحوله إلى سرير مشفى تعالج عليه جراح الملايين من القلوب المذبوحة كما يذبح الدجاج، قلوب أراها تتركل

في الأزقة والشوارع والمستشفيات والسجون وأسفل قطع القصدير، إنّها في كل مكان بأرض المملكة التعيسة هذه، لهذا أرجوك سيدي.. دعني أكتب.. تم قرر في حقي ما تشاء.

❖❖❖

أتعرف.. سأحكي لك قصة ملك من ملوك الزمن البعيد، كان يدعى كسرى، وكسرى هذا يحكى عنه أنّه توسع نفوذه حتى بلغ مشارق الأرض ومغاربها. وكان عادلا بشكل كبير جدا، لا تسألني هل كان أعدل منّـك ؟ لأنّك تعرف الإجابة طبعا..

وحدث أن خرج ذات يوم للصيد فتاه عن أصحابه، وتزامن ذلك مع مرور سحابة مثقلة أمطرت مطرا كثيرا، فحالت بينه وبين جنوده، ومضى الملك لا يدري إلى أين يذهب حتى انتهى به المطاف إلى كوخ تسكنه عجوز، فنزل عندها وأدخلت العجوز فرسه إلى داخل الكوخ. وإذا بابنة العجوز تعود من الرعي وهي تسوق أمامها بقرة حلوب، وطفقت تحلبها أمامه. ورأى الملك أنّ البقرة قد أنتجت لبنا كثيرا، فقال في نفسه :

- أرى أننا سنجعل على كل بقرة خراجا، فهذا حلاب كثير جدا.

ثم قامت البنت ليلا لتعاود حلب البقرة فلم تجد بضرعها قطرة، فصاحت في والدتها العجوز :

- يا أمّاه يبدو أنّ ملكنا هذا قد أضمر سوءا لا يعلمه إلاّ الله.

قالت أمها :

- كيف ذلك ؟

قالت تجيبها :

- ضرع البقرة لا يبزّ بقطرة حليب.

فردت أمها تحذرها :

- أسكتي قبل أن يسمعك الملك..

فعقد كسرى في نفسه العزم على أن يعدل ويرجع عما أضمره سابقا، فلما كان آخر الليل طلبت العجوز من ابنتها أن تقوم لحلب البقرة من جديد، فوجدتها حلوبا، فعادت تقول لأمها :

- يا أمّاه ! قد ذهب والله ما في نفس الملك من السوء.

ولما طلع النهار ورحل الظلام جاء أصحاب الملك، فطلب منهم أن يحملوا معهم العجوز وابنتها إليه، فأحسن إليهما وأكرمهما أجزل ما يكون الكرم والعطاء، ثم قال للعجوز :

- كيف علمتما ذك ؟

فأجابت :

- نحن بهذا المكان منذ كذا وكذا، والله ما عمل فينا بعدل إلاّ أخصبت الأرض واتسع عيشنا، وما عمل فينا بجور إلاّ ضاق عيشنا.

❖❖❖

أعذرني يا صاحب السّعادة، لأنني قررت أن أخرج عن سرب أولئك الذين يرسمون لك كل يوم على صفحات جرائدهم الصفراء ورواياتهم الملونة، لوحات جميلة لشريحة من الناس ترقص من السعادة والفرح حدّ التخمة، أولئك الذين لا تعرف أقلامهم الكتابة سوى عن عشرات المهرجانات والمعارض التي تنظّم في السنة.. أعذرني لأنني سأكتب عن أولئك الذين تعرضوا للنفي من ذواتهم، أولئك الذين أدار لهم الوطن ظهره وتابع سيره دون أن يلتفت، إلى من يجردون من سراويلهم طبقا لفصول قانون مشوّه معاق، ويمارس عليهم الجنس بوحشية على سرير ذات الوطن الذي يشتركون في هواءه وماءه وسماءه..

الفصــل الثانـي

(الحب أن أراك أمامي كل حين كي أطمئنّ أنّي

ما زلت على قيد الحياة...)

الحب ليس عقد نكاح يوقعه رجل وامرأة وعدل وولي، ليس حفلا باذخا ترتفع فيه أصوات مكبرات الصوت من غروب الشمس إلى طلوعها صباح اليوم الموالي.. الحب ليس حلويات ومشروبات ومحشي توزعه أياد رجال يتبخترون داخل كوستيمات ويضعون فراشات سوداء على أعناقهم..

الحب ليس التزاما يضطر بمقتضاه رجل إلى الخروج صباح كل يوم ويرجع في المساء برغيف خبز وكيلوغرام موز وحبات طماطم أو كؤوس ياغورت للأطفال، ولا حكما مؤبدا مع الأشغال الشاقة على امرأة، تكون بمقتضاه ملزمة نهارا بكنس وغسل ملابسه الداخلية وجواربه، وفتح رجليها له ليلا كي يمارس عليها هواية الرجولة والإنجاب كما تفعل الجرذان...
الحب طقس أكبر من ذلك بكثير... إنه التقاء روحين خارج طين ووحل الجسد، تأخذ كل منهما بيد الأخرى وترقصان على إيقاعات الحياة حلوها ومرها.. تتنقلان بين الجسدين في انسياب كنحلتين على زهرة... فيثمر رقصهما أطفالا بحلاوة العسل.

لكنّها للأسف خلاصات لا يبلغها الواحد منّا حتى تفعل فيه الدنيا ما شاءت، ويشرب من أنهار حزنها ما قدّر له أن يشرب، ويسبح في بحار تيهها ما شاءت أن يسبح. وكيف لا وأنا الذي ما بلغت تلك القناعات إلاّ بعد أن اشتعل الرأس شيبا، وقد كنت قبل هذا لا أعرف سوى أنّ النساء لسن سوى سببا من أسباب اللذة مثلهنّ مثل قنينة ويسكي، تشرب منها حتى الثمالة، وحينما تسكر تهشّمها على أقرب جدار تجده أمامك وتكمل الطريق.. وفي الليلة الموالية تقتني قنينة أخرى.. ألم يكن هذا هو منطقي وأنا أدور وألفّ وأدور وألفّ بين أروقة الجامعة باحثا عن أنثى تحمل وزني الخفيف

بضع ثواني حتى نسترخي معا تم نودع بعضنا أو قد نفترق دون وداع أو تحية، لتبدأ رحلة البحث عن جسد آخر أحمله ويحملني حتى الارتخاء، ثم نودع بعضنا بعضا ويمضي كل منا لحال سبيله.

❖❖❖

ما زلت أذكر ذلك الصباح من صباحات فصل الربيع، حين دخلت إلى مقصف الجامعة، جميل إسم "المقصف" لأنّه فعلا يتناسب مع ما سأحكي عنه، جهزت مدفعيتي استعدادا لقصف أول طريدة تبدو على مرمى عيناي. فقد كانت لغة العيون هي اللغة السائدة في ذلك الفضاء المليء بسحب دخان السجائر. كل الأفواه كانت تنفث دخانها الأسود كمحركات سيارات غازوال قديمة. في ذاك الفضاء تختلط روائح الطالبات بروائح العرق ودخان السجائر وبخار عصارة القهوة، فينتج عن هذا الخليط رائحة تشبه تلك التي نشمها في مستعجلات ميريزكو.. آه لا تذكّرني بذلك المستشفى الذي يشبه البوطوار، قبل أيّام أخذوني إلى مستعجلاته نتيجة مغص معوي حاد، وما إن وطأت قدماي أرضيته حتى انتهى مغص الأمعاء وبدأ مغص القلب والفكر والرّوح يعصرني أكثر ممّا فعلته الأمعاء، وأنا أتابع بأسى عذابات الناس مع المرض وإهمال الأطباء.. فكلما دخلت ذلك المستشفى أتأكّد فعلا بأنّ الوطن مريض ويحتضر، وأنّ موته بات مسألة وقت ليس إلاّ.

أذكر أنّني أنا أيضا كنت أمسك بين أصابعي سيجارة ماربورو وأضع أمامي على الطاولة علبة فارغة. لم أكن أدخن بقدر ما كنت استمتع بمشاهدة السيجارة وهي تلتهم نفسها. شيء ما بداخلي كان يهمس لي بأن

المرأة تعشق الرجل المدخن والسكير، الرجل الذي يحكي لها لساعات عن بطولاته ومغامراته في الخمارات والملاهي كل نهاية أسبوع. أذكر أنها مرت أمامي بمشيتها البطيئة كأنثى البط، قامتها القصيرة وقوامها النحيل يذكرانني ببطلات المسلسلات الكرتونية التي كنا نركض كل مساء فور خروجنا من المدرسة للاستمتاع بمشاهدة أحداث حلقاتها بشوق. وقَفَتْ أمام السّي الطاهر صاحب المقصف وهي تحاول الاستعانة بأصابع قدميها لتبلغ سطح الكونطوار المرتفع. أجساد باقي الطالبات البدينات تحول بينها وبين مبتغاها فتتراجع للخلف وهي تنفث الهواء من فمها الصغير، كنت أحسّ بشيء ما يجذبني إليها كما يجذب المغناطيس مسمارا، يومها عرفت أنّ كل قصص وروايات الحبّ التي قرأتها وحكمت على كتّابها بالمبالغة كانت صادقة، تقدمت نحوها وطلبت منها بكل أدب أن أنوب عنها في اقتناء ما ترغب فيه، ابتسمتْ ابتسامة جعلتني لا أرى أصابع يديها الممتدة نحوي بالنقود كغضن يخرج من شجرة ياسمين، تجمدت عيناي في عينيها، فأنهت هي حالة الجمود التي انتابتني وهي تكلمني بارتباك:

- خذ.. أريد سندويتش بالبيض والمورتاديلا.. قل له أن لا يجعله ينضج كثيرا فوق النار رجاء..

حاولت أن أبدي نوعا من الشهامة وأنا أمتنع عن تسلّم النقود التي بين أصابعها مبررا ذلك بأنه عيب، وأن المبلغ بسيط. لكنها أصرت على أن أتسلمه منها، فأخذته وتسللت بين الأجساد المتلاحمة حتى بلغت يدي يد بائع السندويتش ، وما هي إلا دقائق حتى كنت أقف أمامها بزهو وفخر واعتزاز أحمل الطلبية. شكرتني وغادرت المقصف بنفس الطريقة التي أتت بها،

بقيت عيناي تتابعانها وهي تسير كحمل وديع يتحاشا الزّحام خوفا من أن تطأه أقدام القطيع، حتى اختفت عن الأنظار.

ودّعتني ومضت لحال سبيلها.. وبقي صوتها يرافقني.. أسمعه في كل زاوية من زوايا هذا العمق المتواري خلف طبلة الأذن وصمّامات القلب.. هي ليست امرأة كباقي النساء، إنها شيء مختلف يصعب عليّ أن أحدد كنهه.

❖❖❖

أمشي دون هدف محدد أقصده، قدماي تتحركان بشكل تلقائي بعدما ضاع الاتصال بينها وبين مخي الشّارد في عوالم خارج الزمان والمكان.. يعيدني صوت منبه سيارة إلى أرض الواقع وهي تفرمل على مقربة منّي.. صوت زعيق المنبه والفرامل استدار له كل المارين بالشارع. سائق السيارة يطلّ برأسه الأصلع كبطيخة صفراء، وينهال عليّ بوابل من الشتائم:

- إنتبه أمامك أيها الحشرة.. ملأتم الدار البيضاء أيّها البدويين.. حيوان...

أتابع سيري دون اكتراث، رغم أنّني في البداية كنت أرغب في أن أجعله يتوقف حتى أعرض عليه بطاقتي الوطنية كي يعرف أنّني من سكان المدينة الأصليين، شيء ما بداخلي كان يدعوني لكي أردد عليه جملة والدي المعتادة « نحن من اولاد حدو.. وأولاد حدو هم سكان الدار البيضاء الأصليين...» لكنني تراجعت عن ذلك بعدما فكرت في أنّ الأمور قد اختلطت في هذه المدينة الغول، لم يعد هناك فرق بين ابن المدينة وابن القرية. كثيرة هي المرّات التي يتحدث فيها والدي بفخر على أنه من سكان الدار البيضاء الأصليين، وأنّه حدّاوي.. في الحقيقة والدي يكذب كثيرا إلى

الدرجة التي اختلطت لي معها الأوراق، فثارة يقول أنه حدّاوي، وثارة يقول أنّه من منطقة السّاحل بإقليم آسفي.. وأحيانا كثيرة يقول أنّ أصولنا من الجزائر، وبالضبط من منطقة وهران وأنّ أبناء عمومته ما زالوا هناك، لهذا لا زلت لحدّ السّاعة لا أعرف من أيّ منطقة ننحدر، ومع ذلك فهذا لا يهمّ، المهمّ أنّني متأكد بأنّني عربي، والعرب كلهم سواء.

❖❖❖

أنسلخ من جديد عن واقعي، لأنه ببساطة لا يروقني.. يشعرني بالاكتئاب كلما عدت إليه.. أعود سنوات للوراء، حين كنت جالسا في صحن البرّاكة أشاهد مقابلة في كرة القدم على شاشة تلفازنا الأبيض والأسود. أذكر أنني سمعت يومها طرقا خفيفا على الباب، تبعه صوت والدتي وهي تصرخ منادية إيّاي :

- نوض شوفْ شكون في الباب ؟

أقوم من مكاني وأتوجه نحو بطارية التلفاز وأنزع كابلاتها، ألعن الظروف التي جعلتنا نعيش كسكان القرون الوسطى ونحن في القرن الحادي والعشرين، أحاول فتح باب البرّاكة..

طق طق..

تتشابك صفائح الباب مع صفائح الجدار ويرفض الباب أن ينفتح..

أحاول وأحاول جاهدا فتحه دون جدوى..

أركل القصدير بقدمي شاتما :

- تفو على حالة

أسمع صوت رجل خلف الباب يردّ عليّ :

- علاش كتعايرْ يا بنادمْ ؟

أجيبه باستحياء وقد تورّد وجهي خجلا :

- أنا لا أقصدك أنت سيدي الكريم.. أنا أشتم الباب لأنه يرفض أن يفتح..

بعد شد وجذب ينفتح الباب، كان ساعي البريد يحمل ظرفا أبيض، يسلمني الظرف ويطلب مني التوقيع على ما يشبه وصل استلام:

- هذه رسالة من سيدنا الملك نصره الله أرسلها إليك ..وقع لي هنا..

أشعر بقشعريرة غريبة تسري في أوصالي، رسالة من الملك شخصيا لي أنا..! افرك عيناي لعلني أستيقظ من حلم اليقظة هذا. صحيح أنني مدمن على أحلام اليقظة منذ طفولتي، ربّما لأنني أجد فيها الطريق السهل والقصير لكل ما استحال عليّ بلوغه في واقع مليء بالحواجز والعراقيل كلعبة ماريو. لكنني لم أجرؤ يوما على أن أقتحم في أحلامي تلك قلاع الملك..

أضرب بقبضتي اليمنى صفيح المطبخ..

فيخرج صوت والدتي مجلجلا :

- آش كتعمل يا ذاك الكلب !.. غادي تطيّحْ علينا البرّاكة.. الله يلقّيها ليكْ..

كان صوت أمّي دليلا قاطعا على أنّني لم أكن أحلم، لأنها ببساطة لم يسبق لها أن شتمتني في أحلامي. كانت تكتفي بشتمي على أرض الواقع فقط بضع مرات تعدّ على رؤوس أصابع أمّ الأربعة وأربعين.

- باركي لي يا أمّي.. ابنك أخيرا سيتخلص من حالة العطالة هذه...

أمّي المسكينة ترمي كرة العجين من يديها على القصعة وعيناها تحدّقان في عيناي:

- أخبار الخير يا ولدي ؟
- هل تعرفين هذه الرسالة من عند من ؟ (أعرض عليها الظرف الأبيض).
- من عند من يا إبني ؟
- من عند الملك شخصيا...

تعود أمي لتحمل كرة العجين من جديد بعدما ضربت كفا بكف حتى تناثر ما علق بكفيها من عجين ودقيق وهي تقول :
- الله يرُدْ بيكْ يا ولدي.. حالتك غاديا وكتزادْ نهار من بعد نهار.. الملك مرة واحدة ! مجنون رسمي..
- والله العظيم أنّها من الملك يا أمّي...
في هذه الأثناء تقف أختي الصغرى بجانبي وتسحب الظرف من يدي وتقرأ ما كتب على ظهره بصوت مسموع :
- من مولانا صاحب الجلالة إلى السيد... دعوة للحضور إلى القصر الملكي بالأحباس، يومه... الساعة...
ترمي أمّي العجين هذه المرّة على الأرض.. تضمني إليها بقوة حتى أشعر بالاختناق.. تطلق زغرودة طويلة مدويّة.. تتقاطر نسوة الحومة على برّاكتنا مهنئات.. أمي كأنثى طاووس تتحرك وسط النسوة بزهوّ وافتخار.. جملة واحدة تردّها دون توقف :
- ولدي ولّى دابا منو للملك...

أشعر بالإحراج فأتسلل مغادرا تاركا أمّي تعبّر لجاراتها عن فخرها واعتزازها بما بلغه ابنها من مراتب.

❖❖❖

في الزقاق تلتقط أذناي صوتا يشبه الصفير.. أستدير يمينا ويسارا، لا شيء غير الصفيح.. جرد كبير يخرج من أسفل باب براكة جارتنا فاطمة ويركض نحو باب بيتنا، أضع يدي على وجهي وأنا أتوقع ما سينتج عند دخول هذا الضيف الغير المرغوب فيه إلى البراكة في هذه اللحظة بالذات. يرتفع صياح النسوة في الداخل، ينفذ الجرد بجلده عائدا من حيت أتى.. يعود صوت الصفير الخافت ليستقر بأذني من جديد، ألتفت خلفي متمعّنا.. إنّه رأس خديجة ابنة جارتنا يطل من خلف الخامية:

- بس بس... (تلوّح بيدها طالبة مني القدوم).

التفتت يمينا ويسارا، الزقاق فارغ تماما، هرولت نحوها دالفا إلى البراكة، سحبتني من يدي نحو إسطبل البقر. رائحة مخلفات الأبقار تزكم الأنوف. رفَعَتْ صايتها للأعلى كما العادة بكشل ميكانيكي وانحنت مستندة على الجدار وهي تدفع بمؤخرتها نحوي، أنزلت سروالي بارتباك.. أمسكت خصرها النحيل وسحبت مؤخراتها نحوي أكثر.. أخبرتها بأنّ المكان أصبح أوسع من المعتاد، فأجابت بأنّها تعرفت على أحد يكبرني سنّا، وأنّه يضع دالخا قطعة لحم أكبر من التي أدخلها أنا، بصقت على يدي متأفّفا وشاتما:

– صافي يا القحبة ما بقيتش كافيك أنا

لم تجبني وظلت منحنية وتحاول رفع مؤخرتها نحوي أكثر، كنت أسمع صوت وحشرجة أنفاسها ترتفع كاسرة حالة الصمت المطبق في المكان، فأزيد من سرعة حركاتي، أحوم بعيني في المكان دون أن أوقف حركات

نصفي السفلي.. تم أبصق من جديد على يدي وأدهن مؤخرتها وأواصل ما بدأته، وحدها بقرة أمي فاطمة كانت تتابع المشهد في صمت ...
رفعت تبانها بشكل سريع، ورفعت أنا الآخر سروالي، بصقت متأففا صوب البقرة التي كانت ما تزال تراقب المشهد:
- ما بك ؟ لماذا تبصق ؟ (تسألني خديجة مستغربة)
- لا شيء.. فقط رائحة مخلفات الأبقار تزعجني..

خرجت مسرعا دون أن ألتفت هذه المرة. لا أعرف ما الذي يجعلني أتخلى عن كل نذر نذرته بأن لا أدخل ذلك الإسطبل اللعين مرة أخرى، كنت أمقت نفسي دائما كلما انتهيت من حلقة من حلقات مسلسل خطيئتي هذه.. لكن شيئا ما بداخلي كان يفقدني صوابي كلما دعتني لزلة جديدة..

❖❖❖

كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحا. ترجلت من سيارة الأجرة الصغيرة التي أقلتني من سيدي مومن إلى حي الأحباس. وقفت أعدل معطفي الصوفي الأسود الطويل، رميت بصري صوب بوابة القصر، بعض عناصر الحرس الملكي بزيهم الأحمر والأبيض وأحذيتهم السوداء الطويلة، يقفون في جوانب البوابة الرئيسية المطلة على شارع محمد السادس. لمحت بعض الزوار يتجهون صوب الحراس، فهرولت نحوهم وأنا أحمل في يدي بطاقة الدعوة. طلب مني أحد الحراس بطاقتي الوطنية، فتشت عنها في جيوب سروالي ولم أجدها، فتشت جيوب معطفي الخارجية ولم أعثر عليها.

اللعنة ! أهذا توقيت مناسب لتختفي فيه ؟ أحد الحراس لاحظ حالة الارتباك التي بدت واضحة عليّ، فطلب مني أن أسترخي وأبحث عنها في هدوء. أعدت تفتيش جيوب سروالي للمرة الرابعة دون جدوى..

- كانت معي.. اطلعت عليها قبل قليل عندما كنت واقفا هناك على جانب الطريق..

(قلتها له وأنا أنظر إلى عينيه كصبيّ ضاعت منه قطعة نقود)

- عد حيت كنت واقفا واستطلع المكان، فربما تكون قد وقعت منك هناك.

هرولت نحو مكان وقوفي دون أن أرفع عيناي عن الأرض.. لا أثر لها، فتحت الظرف الذي يحوي بطاقة الدعوة.. يا لني من غبي.. إنها في الظرف. عدت مهرولا من جديد نحو البوابة.. ابتسم لي الحارس وهو يطابق بين وجهي وصورتي في البطاقة.. بدا لي من خلال تقاسيم وجهه أنّه قد تأكّد بأنّ الشخص الذي يبتسم في البطاقة يشبهني إلى حد كبير.. تم أشار لي بالدخول.

كانت حديقة القصر الخارجية لوحة فنية خلابة، أنواع وأشكال مختلفة من الزهور بألوان تسلب الأبصار. عند نهاية الممر بوابة أخرى صغيرة مجهزة بجهاز تفتيش إلكتروني، أحدهم كان يسير أمامي ببذلته السوداء الأنيقة، صوت وقع حذاءه الأسود اللامع يسمع من بعيد، التفت نحوي ثم أدار رأسه وتابع السير.. لابدّ أنّه يشتمني الآن في قرارة نفسه.. إنّهم لا يحبّون أن يرونا بينهم.. سمعت من والدي مرارا وهو يحكي لأصدقاءه في مقاهي الحي المقابل لدوارنا عنهم، وكيف أنّهم يمقتون حتى رؤيتنا على الطريق من داخل سياراتهم المكيّفة.. ولكننا نستحق ذلك كما يقول والدي.. فنحن من أوصلناهم لتلك الكراسي والمناصب.. والدي يكذب

دائما إلاّ في هذه فإنّه لم يكذب.. فكم مرة رأيت والدتي تتسلّم ورقة نقدية زرقاء من من أمي الرحّالية التي تسكن في الزقاق الخلفي، وتطلب منها أن ترمي صورة الميزان في الصندوق الزجاجي.. ولا تغادر أمي الرحالية حتى تتأكد بأنّ والدتي قد تعرفت على الميزان ولم يعد يختلط لها بباقي الحيوانات.. والغريب في الأمر أنّ امّي الرحالية هذه العجوز الشمطاء لها ابن مرشّح بألوان ومز حزب آخر منافس للميزان، لكنّها تعمل الدّعاية لمن يدفع لها أكثر..

اقتربت يومها من الشخص الذي يسير أمامي أكثر فتعرفت إليه، إنه الوزير المكلف بالإسكان وسياسة المدينة.. لا أعرف لماذا انتابتني حينها حالة من الرغبة في الضحك بأعلى صوتي بمجرد أن راجت في ذهني عبارة وزير الإسكان.. تساءلت حينها ما الجدوى من وزارة تُصرف عليها ملايين الدراهم ويرأسها سافل كهذا.. ما جدوى كل ذلك إذا كنا نسكن الصفيح. سبقني إلى البوابة واستخرج من جيب سترته مجموعة مفاتيح وضعها في يد الحارس، تم أزال ساعته اليدوية وسلّمها له هي الأخرى، ومرّ عبر البوابة في عجلة كقطار يمقت البقاء في الأنفاق. أتبعه أنا مباشرة فتُصدِرُ البوابة صوتا غريبا ويكسوها ضوء أحمر.. اللعنة عليها ! لماذا اختارتني أنا بالذّات ؟

اقترب مني الحارس سائلا :

- هل تحمل هاتفا محمولا ؟ (يسألني بوجه مقطّب يشعرك بالرعب)

- لا سيّدي.. أقصد نعم سيدي...

- سلّمني إيّاه وعاود الدخول من البوّابة من جديد.

سلمته الهاتف وعاودت المرور عبر البوابة من جديد. الحمد لله... هذه المرة كانت سالمة. تسلمت هاتفي النقال ذو الهوائي الطويل، كان الهاتف ثقيلا جدا إلى درجة أنه يتسبب لي مرات عديدة في انزلاق سروالي للأسفل.

دخلت عبر أحد الأبواب المقابل للبوابة الإلكترونية لأجدني أمام بهو كبير مخصص للضيوف ولقاءات الملك الروتينية، عدد من الحاضرين تراصوا في صفوف على مقاعد جلدية حمراء. بحثت بين الصفوف عن كرسي شاغر في الصفوف الخلفية، وجلست أتأمل تلك الستائر المذهبة التي تسلب الأنظار، فسيفساء الجبس المتناسقة كقطع حلوى تجعلك تشتهي أن تقضم منها قطعة أو قطعتين. الثريات تتدلى من السقف كعناقيد ألماسية تشبه تلك التي نراها في قصص الأطفال المصوّرة. تحسست جيب معطفي الداخلي لأتأكد من وجود الرسالة التي كتبتها بعناية خاصة كي أسلمها للملك، لم أطلب في الرسالة أشياء كثيرة.. فوالدي نصحني بأن أكون لبقا وأن لا أبالغ في الطلبات.. قال لي بأنّ قواعد الإتيكيت تقتضي أن أؤجل باقي الطلبات للقاءاتي المستقبلية مع الملك.. فقط وظيفة بسيطة تنتشلني من مستنقع الحياة الآسن الذي أغرق فيه أنا وأسرتي.. أذكر أنّني حين كنت منهمكا في كتابة الرسالة، كانت والدتي تجلس أمامي وهي تحرك الحسكة أو الشمعدان يمينا ويسارا كي ينير ضوء الشمعة أكثر. لا أعرف فيما كانت تفكر حينها، شيء واحد كنت متأكدا منه، هو أنها تحلم باليوم الذي ستتخلص

فيه من دفع كروسة الماء صباح مساء. فظَهْرُ أمي لم يكن مقوّسا بهذا الشكل قبل أن ننتقل للعيش في هذا الحي الصفيحي اللّعين، فكرت يومها أنّ تلك السيدة العجوز التي أراها أمامي وهي تدعو لي صباح مساء، ليست أمي التي عرفتها. حياة الصفيح أكلت من لحمها وشحمها ما أكلت. كنت عندما أراها تمشي منحنية ألومها وأطلب منها أن تمشي معتدلة حتى لا يتصلب عمودها الفقري فيستحيل بعدها أن تقف بشكل مستقيم، فكانت تجيبني بأن العوينة والكروسة هما السبب. وفجأة يخرجني من دوّامة أفكاري صوت يدوّي كالرعد في غفلة من الجميع كاسرا حالة الصمت التي كانت تخيم على المكان :

- الله يبارك في عمر سيدي..

لم أعرف مصدر الصوت إلا بعد أن رأيت الجميع يلتفت صوب الصفوف الخلفية، بدا الملك بجلبابه الأخضر وطربوشه المخطط بالأصفر والأخضر كعريس يمشي الخيلاء في اتجاه مقدمة الصفوف. جلس على كرسي فاخر امتزج فيه الأحمر والأسود مع تلميحات من لون البيج الخفيف، وكست جوانبه صفرة ذهبية براقة أضفت عليه سحرا خاصا. ارتفع صوت النشيد الوطني فانتصب الجميع واقفين، ليشرع بعدها أحدهم في عرض أبرز محاور برنامج المبادرة الوطنية للتنمية البشرية التي أعلن عنها الملك قبل أيام .

❖❖❖

خرجت من القصر خالي الوفاض، اللهم من بعض الحلويات وقطع الشوكولاطة التي ملأت بها جيوبي، فقد أخفقت في تسليم الرسالة للملك، أو بالأحرى الملك هو من لم يمنحني الفرصة كي أسلمها إليه. طول الطريق كنت أفكر في الرسالة التي في جيبي، وألوم نفسي على ترددها في الخروج من الصفوف والتوجه نحو كرسي الملك، لكنني أخفّف هذا الحنق والغيض بالتفكير في أن هناك ملايين الرسائل التي لا تصل إليه، أو بتعبير أصح هو من لا يمنحها الفرصة كي تصل إليه.. لا أعرف ما الذي جعلني أتذكر يومها موقفا وقع لي في طفولتي، حين كنت مستلقيا داخل سيارة الإسعاف والدماء تسيل من رأسي، كان ذلك في إحدى أيام العطلة الربيعية، يومها كنت أتجوّل بدراجتي الهوائية في أزقة الحي الإسمنتي المقابل لدوارنا، فنعتني أحدهم بولد الكاريان، ترجلت من دراجتي وضربته بسكين صغير خاص بتقليم الخضار اعتدت أن أحمله معي على ناصيته.. فارت دماءه على وجهه حتى اختفت عيناه.. خرج ثلاثة من أشقاءه يكبرونني سنا وانهالوا عليّ بالركل والرفس.. تم هوى عليّ أحدهم بعصا ضربة انطفأ على وقعها النور عن عيناي.. ولم يرجع النّور إلاّ بعد دقائق. كانت سيارة الإسعاف تقلّني وهي تصدر زعيقا يرعب باقي السيارات فتفسح لها المجال، أو هكذا كنت أعتقد أنا آنذاك.

كان والدي يمسح لي الدماء ويحاول جاهدا منع خروج المزيد منها.. تتوقف سيارة الإسعاف فجأة عند القنطرة.. يطلب والدي من السائق الإسراع.. يشير له السائق بأنّ الطريق مقطوع لأنّ الموكب الملكي سيمرّ من أسفل القنطرة.. يلعن والدي الموكب ويلعن السائق.. ألعن أنا الساعة التي

خرجت فيها بالدراجة.. سألت والدي لماذا يقطعون الطريق فوق القنطرة إذا كان الملك سيمرّ أسفلها.. يبتسم أحد رجال الوقاية المدنية الذي كان بجانبي... عندما كبرت شاهدت رئيس وزراء دولة عظيمة ككندا يسير في محطة الميترو على قدميه بدون حرس شخصي.. يصافح المارة ويلقي عليهم تحية الصباح.. ففهمت آنذاك متأخرا لماذا كان رجل الوقاية المدنية يبتسم.. كلنا في هذا الوطن نخرس عن الكلام عندما يتعلق الأمر بالملك.. فأعلى ما يمكننا فعله هو أن نبتسم بعدما أن نكون قد نظرنا يمينا وشمالا وتأكدنا من خلوّ المكان...

❖❖❖

أغلقت دفة ذاكرتي بعد أن وضعت علامة على آخر محطة بلغتها من محطات أيامي. اقتربت من المجمع الصفيحي الذي يبدو من بعيد كسوق للمتلاشيات، رائحة المياه العادمة تنتشر على مسافات بعيدة وكأنها ترسم حدود هذا الثلث المنسي من الوطن. عند باب البراكة كانت تجلس الوالدة على قطعة كيس أو ما نسميه نحن خيشة الشرمتل، توقفت أمامها صامتا وأنا أتطلع لتلك التجاعيد التي صارت تحتلّ وجهها جزءا جزءا بدون حرب. وما إن رفعت رأسها نحوي حتّى ضَرَبَتْ كفا بكف وهمَسَتْ لي متمتمة:

- الله يدير ليك اللي فيها الخير.

دلفت إلى داخل علبة الصفيح كما تدخل قطع السردين المتعفّنة إلى علبها، شيء واحد كان يوجعني، إنه التفكير في ما تشعر به الآن تلك السيدة التي تجلس في الخارج ممدّدة رجليها على التراب.

الفصــل الــثالــث

(آهات من خلف الصفيح...)

تتساقط الأفكار على الذاكرة المثخنة بالجراح كوريقات الخريف البالية...هي ذي الأوحال تعشش في رحم الزمان، وذويّ الرعد يخرج من فم صبيّ أفزعه صوت وقع الأمطار على الصفائح الممتدة من البيضاء إلى الرباط..نحن المرابطون بلا فقيه، نمدّ أكف الضراعة إلى السماء لعلّها تخلّصنا من كفن النسيان المنسوج حول عوراتنا، حتى السراويل فرّت من فوق سوءاتنا من وحشية الجنس الممارس علينا بلا فراش، جنس الجلاّد ، هي ذي سياطك يا زمن تهوي على ظهورنا فترسم عليها باللون البني القاتم كلمة لا... فتحنا الدرج نبحث عن موقع لنا على خارطة الوطن، آه !! صوت آه ينفلت من خلف الصفيح بلا اتجاه، ويد تكفكف شظايا الدمع حتى لا تذبح الوجنتان، هاهم قد خرجوا يحملون نعشا على الأكتاف، هاهم يسيرون به بلا تكبير ولا قرآن، هاهم يمضون به بلا دمع ولا أحزان، هاهم ينبشون له قبرا في مقبرة الأوطان.

❖❖❖

نسافر بلا اتجاه يا وطني، وتموت الأحلام فينا دون أن يفتحوا تحقيقات ولا محاكمات ... وهذه الجرذان تسكننا فنصير لطول مكوتها فينا جرذانا، نتناسل بلا انقطاع لعلّنا نجد في الجنس ما يثبت وجودنا، حين تهجع الدبابير إلى أوكارها يخرج أطفالنا يتحسسون صناديق القمامة، يبحثون بين أزبالها عن كسرة خبز، عن دمية ترفع يدها وتجفف الدمع المنحدر من أعين السماء، عن حلم ضاع منهم ذات يوم أو ابتسامة، ولكن للأسف ! تقع أيديهم على غفلة منهم في مصيدة الجرذان فيصرخون من شدة وقعها على العظام،

يتراجعون وهم عازمون على عدم العودة لسلة القمامة مرة أخرى وقد ارتسم على محيّاهم صوت آه ... هكذا هي حياتنا خلف الصفيح، زمن يمضي بنا بلا رجوع، وحتى لا تسألني ذات يوم إذا ما متّ بينكم ناشرا فيكم عدوى الموت لما فعلت ؟ دعني أقول لكم بأننا أبدا لن نموت رخصاء أو نؤدي بموتنا الأبرياء، لن تدفنونا في مقبرة الأوطان كما فعلتم مع الوطن....

❖❖❖

..ها نحن نموت كي تعيشوا وحدكم دون أن تموت الأسئلة الرابضة فينا أو تنبطح شمس الأفول، سيكمل القطار طريقه من فوق ظهورنا في رحلة اللاعودة، وأنت يا وطني سنزورك كل مساء حين تغمس الشمس رأسها في مياه البحر خجلا وهي ترى الدمع يتدفق من مقلتيك، سنزورك يا وطني حاملين إليك وريقات زيتون وباقات أقحوان، وقبل ذلك ها نحن نموت يا وطني دون أن تدفن أجسادنا أو تصلّى عليها صلاة الجنازة، ولا حتى تتلى عليها آيات من الذكر الحكيم .. ها نحن نموت يا وطني بعد أن فتحنا في جدران قبورنا نوافذ ننظر من خلالها إلى تقاسيم وجهك ...أبدا لا تلمنا يا وطني إذا ما متنا ذات يوم كدودة على قارعة الطريق ... أبدا لا تلمنا يا وطني، إذا ما انفجرنا غيضا ذات يوم وكتبنا بدمائنا قصيدة آه بلا عنوان.

الفصــل الرّابـــع

(جبال الريف لا تخشى العواصف...)

كل جزء داخلها كان ينبض باسمه، صورته وهو يبتسم ويرفع يده ملوحا لها بالوداع من داخل الممرّ المؤدّي إلى المعتقل ما تزال عالقة بشرنقة مخيلتها. بعض الذكريات تكون كالسرطان كلما حاولت استئصالها ازدادت انتشارا وتغلغلا فيك أكثر.

أغلقت باب غرفتها المنعزلة في الطابق الأخير من الفندق، طابق مخصص للأثاث البالي وكل ما لم يعد صالحا للاستعمال. أشفق عليها أحد المديرين الذين تعاقبوا على تسيير هذا الصرح الكبير، فسمح لها باستغلال تلك الغرفة بثمن رمزي كمأوى يقيها حر نيران أسعار الكراء الملتهبة في هذه المدينة الغول الممتدة الأطراف، بعدما عرف قصتها والأسباب التي دعتها إلى ترك الرّيف بجباله ووديانه وهضابه، واللجوء إلى هذه المدينة التي استزفت فيها كل ما تملكه من مال ومدّخرات ومجوهرات. عرفتها وحيدة تتجول كل مساء سبت وأحد بين أزقة المدينة العتيقة. تزحف بخطوات بطيئة كسلحفاة هرمة لم تعد تقوى على حمل صدفتها. المنديل الأحمر الملفوف بشكل عشوائي فوق رأسها، يتدلى طرفه على كتفها وتحركه الرياح فيبدو كخرقة بالية شبيهة بتلك التي يستخدمها سائقو الشاحنات على طرف منقولاتهم حتى يراها باقي السائقين خلفهم. وجهها الذي كان بالأمس القريب لوحة لا تقل جمالا وبهاء عن لوحات ليوناردو دافينيتشي، تحوّل إلى وجه جثة تقاوم السقوط خوفا من طمرها في التراب. لم تكن تخشى الموت بقدر ما كانت تخشى أن يسألها الله عن كل لحظة من لحظات المجون والفسق التي عاشتها في هذه المدينة قبل تعرّفها على يوسف. كانت كلما تذكرت الموت تمنت لو أن الله يأخذها إلى جهنم دون

حاجة إلى إحراجها بالوقوف أمامه بتلك الخطايا المقززة حسب وجهة نظرها، خطايا تقول أنّ أقلّها كاف ليجعل المرء يشعر بالتقزز.. لولا دخول يوسف إلى حياتها لكانت ما تزال ضائعة ضياعا من نوع آخر يختلف عن ضياعها الحالي.

❖❖❖

ثنائية الجنة والنّار.. نقيضان دارت وتدور حولهما قصص تاريخ البشرية جمعاء. لا أعرف لماذا تحضرني في هذه اللحظة بالذات صورة أحد المحسوبين على رجال الدين بالمغرب، وهو سُلَيْفي خرج مؤخرا من السجون مثخنا بالجراح، طلع علينا بتصريح يقول فيه أن عذاب القبر أسطورة لا تختلف عن حكايات عمي الغول وأمنا هينة التي كانت ترويها لنا جداتنا قبل النوم. أمثال هذا السُّلَيْفي لا ألومهم، فالجراح التي تحملها مؤخراتهم المتورمة من آثار القنينات والعصي، كان لها وقع كبير على أفكارهم. ويشاع أنّه تحوّل هذه الأيّام إلى بوق للحركة النسائية المطالبة بالمساواة في الإرث. هكذا هي أنظمتنا العربية، تغيّر بالقنينات والعصيّ ما لم تستطع تغييره بالإعلام المأجور.

فقهاء بلدي يستغلّون الجنة والنّار كما فعل أساقفة الكنائس في بلاد النصارى، التفكير في هذه الثنائية المتناقضة يجعلني أتوه في خضمّ من التساؤلات التي تتقاذفني تياراتها دون أن ترمي بي في أيّ مصب.

أتساءل بدوري هل سيسامحني الله على ما ارتكبته أنا أيضا من أفعال مشينة.. هل سيسألني عن خديجة ابنة جارتنا فاطمة وعن الإسطبل ، ومن يدري فقد يستدعي البقرة كشاهدة على الجريمة، أيمكن أن يسألني أيضا عن سمية التي كانت تعيش بجوارنا مع والدتها وحيدتين بعدما فصل الطلاق بين والديها، كنا وقتها طفلين صغيرين لم نتجاوز الثانية عشرة من العمر، هل سيسألني عن تلك اللحظات التي كنت استغلّ فيها تواجد والدتها بالعمل كخادمة تنظّف درج العمارات المقابلة للدوّار، فأختلي بها في غرفة نوم والدتها.. مصيبة إذا سألني عنها، مجرد التفكير في ذلك يعيد تشغيل شريط الأحداث في جزء ما داخل رأسي، فأراني وأنا أحاول تجريدها من تبانها الداخلي وهي تقاومني جاهدة لمنعي من ذلك. كانت تقول لي سأسمح لك بذلك عندما نكبر ونتزوج.. كبرت وكبرت سمية ولم نتزوج، كما أنني لم أتمكن من نزع تبانها لأشبع فضولي وأطّلع على ما تخفي تحته. مصيبة إذا سألني الله عن كل ذلك.. لا جواب.. أكيد بأنّ الله في غنى عن ذلك، سيتفادى التدقيق في تفاصيل تلك الخطايا حفاظا على الحياء.. أتذكر قوله تعالى:

"وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا".

فأشعر بغصّة في حلقي، أسرّع شريط الذكريات فتمرّ أمامي مشاهد كثيرة لطالما تمنّيت لو بإمكاني قصّها من الشريط بشكل نهائي، فلكل منّا نقط سوداء في حياته يتحاشى دائما المرور عليها أو الوقوف عندها.

❖❖❖

هي لم تكن تكن تحب يوسف كحب كوثر لي أنا، حبها كان مختلفا تماما، بالنسبة لي هي كانت تحبه كحب خديجة لنبي الإسلام محمد، فقد منحته كل ما تملك، وكانت مستعدة لتمنحه أكثر من ذلك لو طلب منها أكثر.. وأنا أسمع المسلمين يحكون قصصا عن خديجة ومحمد تشبه تلك التي تجمع بين يوسف وزينب. فناصر فقير معدوم مثل محمد، وزينب كانت يوم لقاءها بيوسف أيضا ميسورة تمتلك مسكنا خاصا يطل على الشاطئ.. وسيارة ببابين مكشوفة الغطاء ويختا.. ويمكن أن نضيف أيضا أن خديجة كانت أول من آمن برسالة محمد وصدقته.. وكذلك فعلت زينب مع يوسف ..قد يكون هناك اختلاف بسيط بين القصتين، فرسالة محمد أتته من السماء كما يقول من آمنوا برسالته في كتب تاريخهم التي كتبتها أيدي وعقول أناس من أزمنة مختلفة قابلة للخطأ والصواب، أما يوسف فرسالته نابعة من عيون أولئك الجوعى الذين كان يمرّ عليهم كل صباح وهم يتحسسون صناديق القمامة، ومن أنين آلاف المرضى الذين كانوا يزاحمونه على مقاعد الطاكسيات الكبيرة في طريقهم بحثا عن مستشفى تخفف عنهم آلامهم.. وكما كان محمد يصعد لغار حراء كي يختلي بنفسه انتظارا لجبريل.. فيوسف كان هو الآخر يصعد لجبال الريف يستمع لأغنية سعيدة فكري وهي تنشد بصوتها الملائكي وينتظر اللحظة الفارقة الحاسمة التي سيغيّر فيها عجلة التاريخ:

"جبال الريف علاش تكذبي وتباني قدامي فرحانة..

اللي خلقك قادر يبني في جنابك حقول ووديان..

جبال الريف انا شفتك تبكي وعيونك ذايقة المرارة..

تكتبي همك ولا تشكي..

من لونك بان البرهان...".

قلت لها ذات مساء ونحن نجلس في مقهى فرنسا نتطلع ونستمع لمعزوفات بعض الشبان في ساحة الأمم المتحدة:

- ألا ترين أن يوسف كان غبيا عندما ظن أن من ضحّى من أجلهم سيتذكرون تضحياته ؟

ردت وقد أرسلت بصرها بعيدا صوب الساعة العملاقة المعطّلة أعلى بناية باب مراكش:

- وهل تعتقد أنت يا شاعرنا أن من ناضلوا عبر التاريخ كانوا ينتظرون أن تذكرهم شعوبهم وتعبّر عن فخرها بهم ؟ لقد علّمنا التاريخ أن جل من رفعوا السيوف والكلاشينكوف في وجه الظلم والاستبداد، سقطوا إما ضحيّة رصاصة غدر أطلقتها أصابع يد من أيدي من كانوا يدافعون عنهم، أو ضربة سيف وجهتها لهم يد الاستبداد بعدما كشفت أصابع العبيد عن أعناقهم من بعيد.. فجيفارا الذي أشعل النّار في جسده لينير حياة الكوبيين البؤساء، ألقي عليه القبض بوشاية من راع فقير أرشد الضباط إلى مخبئه الأخير، وعندما سألَ الضابط الرّاعي لماذا وشيت به رغم أنّه كان يدافع عنك، أجابه الراعي بأنّ جيفارا كان يرعب أغنامه.. فالراعي يبقى راعي لا تهمّه إلاّ أغنامه، واللص يبقى لصا، ولو أجلست لصّا في الصفوف الأمامية من المسجد فسيفكر في طريقة يسرق بها الإمام الذي يؤمه في الصلاة.. والراقصة تبقى راقصة حتى إن تابت لا تنسى هزّ الأرداف والأكتاف.

- ماذا يعني لك يوسف يا زينب ؟ (سألتها)

- وماذا تعني لك كوثر ؟

ابتسمتُ وأنا أستجمع شتات أفكاري من أجل الإجابة على سؤال أنا متأكد أنه لم يصدر بنفس العفوية التي انزلق بها سؤالي من حلقي.

- هي زوجتي وأم الوادي...

- فقط... زوجتك وأم أولادك لا غير ؟

أدخلني سؤالها الجديد في وقت مستقطع من التفكير امتد لبرهة من الزمن، واسترسلت في تفكيري حتى انتهى بي حديث النفس إلى أن أصارحها بكل شيء، فقد صرت متيقنا بأنها إذا لم تنفعني فلن تضرني رغم حداثة معرفتي بها...

- هل تعلمين يا زينب ؟ كوثر لا تعني بالنسبة لي مجرد زوجة أو أم أولادي.. كوثر أصبحت قطعة مني.. قطعة من الصعب عليّ أن أستأصلها رغم أنني أشعر أحيانا أن جسدي لم يعد يتعايش معها، شيء ما في داخلي تغيّر وجعل جسدي يحاول لفظها مرارا.. لكنني أخشى إن استأصلتها أن أعيش بقية حياتي معاقا.. ثم ...

تقاطعني:

- تم ماذا ؟ أكمل..

- لا أعرف.. تختلط علي المفاهيم والأفكار.. فأصبح عاجزا عن تحديد طبيعة شعوري اتجاهها...

- أنت تحبها يا شاعرنا.. صدقني.. ذاك هو الحب، يبدأ قويّا كالرّعد يحرّك كل أوصالنا، ثم ينتهي جداول ووديان تتدفق ببطء حتى لا يصبح بإمكاننا معرفة هل هي جارية أم راكضة... ينبغي عليك أن تعيد التفكير في ما أنت مقدم عليه.. فراقك وهجرك لها هو خيار غير صائب تماما، لم يكن ينبغي عليكما أن تفتحا الباب لحبكما كي يدخل قاعات وجلسات المحاكم..

- ما زلت تتهربين من الجواب.. ماذا يمثل لك يوسف ؟

ترتشف رشفة طويلة من كوب عصير البرتقال مصدرة صوتا يشبه صافرة الكوكوط ، وتصمت برهة تم ترفع رأسها نحوي فتنعكس صورتي في ماء عينيها العسليتين، وتجيب :

- يوسف !.. عن أيّ يوسف سأحكي لك ؟

هل عن يوسف الطفل المشاكس والشقيّ.. الطفل الذي لم يترك زقاقا في حي البيرو أو ما يطلق عليه اليوم حي الميناء إلاّ وركض فيه وملأه ضجيجا.. الطفل ذو العينين الكبيرتين اللتان تشعّان نورا وحبّا للحياة.. أم عن يوسف الشاب الذي الذي بدأت عيناه تتطفّلان على بيوت من حوله من أهل الرّيف الطيبين، وبدأت شهيّته للعلم والمعرفة تتفتح كوردة في فصل الربيع. يوسف المهووس آنذاك بالتهام كتب التاريخ والأدب والفلسفة.. فيقارن بين ما منحه الريف وأهله للوطن، وبين ما أخذه الوطن من الريفيين.. يوسف الذي كان كلما رأى أحدا من أشقاءه أو أبناء حومته ينتظر في محطة الطاكسيات من يقلّه إلى مستشفى تطوان أو جامعة من جامعاته، يشعر بالغبن ويستغرب كيف أنّ مدينة كبيرة بحجم الحسيمة لا تتوفّر على مرافق تُغني أهلها عناء سلك هذه الطرق الطويلة.

كَبُرَ يوسف، وكَبُرَتْ نظرته للعالم من حوله، فسيفساء المنطقة بدت له لا تعكس صورة ما قرأه عنها في كتب التاريخ.. الريف الذي كان بالأمس شامخا شموخ الجبال المحيطة به من كل جانب، لم يعد شامخا كما كان.. حلقة ما تنقص ليصبح لمسلسل الحياة هناك معنى.. فأصبح السّؤال الذي يؤرقه هو من بثر الحلقة وجعل مسلسل الحياة هناك بلا معنى ؟

أذكر أنّه كان يحدثني دائما عن محاولات والده المتكررة لإقناعه بالالتحاق بالعمل السياسي، كان يبذل جهدا كبيرا ليظهر له بأن كل الظروف والإمكانيات متوفرة له كي يكون سياسيا وزعيما مخضرما ولامعا. أخبره مرارا بأنه مستعد لان يمهد له الطريق في الشبيبة الاتحادية، وهي شبيبة حزب الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية الذي ينتمي إليه الوالد. كان يشرح له بإسهاب كيف أن مناضلي الحزب بلغوا من النضج ما يجعلهم في طليعة الأحزاب التقليدية المغربية المعارضة والإصلاحية. لم يكن يتوقف عن تمجيد زعيم الحزب عبد الرحمان اليوسفي، فلا تراه يكمل جملة مفيدة حتى يقحم فيها اسمه وما سمعه عنه أو قرأه من بطولات. أذكر يوم حكا لي كيف دخل والده المنزل ذات مساء من أمسيات مارس لسنة 1998 وهو يكاد يطير من الفرح، كان سعيدا للغاية بشكل لم يراه سعيدا فيه من قبل لهذه الدرجة. يذكر أنه اختاره هو بالذّات وتوجه نحوه دون أشقاءه الأربعة الذين يكبرونه سنا، عانقه وضمه إليه بقوة وهو يردد:

- لقد حققنا أهدافنا.. لقد أثمر أخيرا كفاحنا ونضالنا لعشرات السنين.. الملك استجاب أخيرا لمطالب الحزب وكفاح مناضليه، لقد كلّف الزعيم عبد الرحمان اليوسفي بتشكيل الحكومة.. ويقولون أنها ستكون أول حكومة

تناوب ..
فقاطعه يوسف وهو يتملّص من حضنه بسلاسة ويتوجه نحو الباب خارجا:
- سيتناوبون فعلا يا أبي.. سيتناوبون على ركوب ظهر الوطن ونهب خيراته، كلهم يناضلون من أجل هدف واحد لا ثاني له.. مصالحهم الشخصية يا أبي، ولا شيء غير المصالح.

خرج يومها دون أن يكلف نفسه عناء الالتفات نحو ردة فعل والده وهو يتلقى هذه الكلمات، لو كان التفت التفاتة خفيفة لرأى كيف تحولت ابتسامة والده العريضة وفرحته إلى حالة شرود ووجوم واضحين، ولشاهد تلك الدمعة التي كانت تقاوم للخروج من بين رموش عين أكل البياض جزءا كبيرا من بؤبؤها.

أتعرف يا شاعرنا ؟ كل شيء يمشي في هذا الوطن أعرج.. القطارات عرجاء لا تصل في توقيتها المحدد، الحكومة عرجاء لا تحقق لمن انتخبوها أحلامهم الوردية التي رسمتها لهم قبيل كل انتخابات.. البرلمان هو الآخر أعرج لأنه يمشي بقدمين صناعيتين ركبتهما له الدولة العميقة في عملية جراحية طويلة غيرت كل معالم الجسد.. حتى الجو والمناخ هنا أعرج، فلا الشتاء تصل في توقيتها المحدد، ولا الصيف يسير معتدلا بدون ترنح..

❖❖❖

في تلك الأثناء التي كانت فيها زينب تحدّثني عن بطلها يوسف.. كان هو منزو كعادته في ركن سريره الحديدي الصدئ، وقد تسللت إلى ذهنه صورة زينب وهي تنادي عليه وتركض خلفه لاهثة، وقد أمسكت بين أصابع

يديها فردتي حذاءها ذا الكعب العالي، كانت تركض حافية القدمين لأن الحذاء لن يسعفها على اللحاق به، فقامت بخلعه، خصلات شعرها الطويل تغطي وجهها وتحجب عنها الرؤية، تتوقف لتضع إحدى فردتي الحذاء مع الفردة الأخرى في يد واحدة كي تتمكن من إعادة ترتيب شعرها باليد الأخرى، تركض من جديد خلف صاحبنا الذي لم ينتبه لها، وأخيرا يبلغه صوتها فيستدير نحوها، يبتسم ابتسامته المعهودة ويتجه نحوها، تتوقف لاهثة وتنحني مستندة على ركبتيها في محاولة لاسترجاع أنفاسها، يضع يده على كتفها ممازحا :

- يبدو أنك قد هرمت.. بضع خطوات جعلتك تلهثين.

استقامت واقفة تبتسم وتحاول أن تظهر أنها ما زالت قوية وعلى أحسن حال:

- العجوز هو أنت.. أنظر إلى رأسك كيف صار يمتلئ بالبياض يوما بعد يوم، شهور فقط وسيصبح أبيضا بالكامل، حينها سأناديك عمّي الحاج.

- الشيب وقار (قالها مبتسما وهو يقف شامخا كجبل من جبال الريف الكبير، كتفين عريضين أسفلهما صدر بارز يشبه صدور هواة رياضة كمال الأجسام، ووجه أبيض بلحية خفيفة سوداء، وعينان واسعتين يشعّ منهما بريق لا تراه إلاّ لدى الرجال.. مع خطّ أحمر تحت كلمة الرجال.. فليس كل ذكر رجل).

- امممم غنّي لي أغنيتك الشهيرة : عيرتني بالشيب وهو وقار، يا ليتها عيرتني بما هو عار، اعترف أنك أصبحت عجوزا وفاتك القطار.

قاطعها وهو ينحني نحو فردتي حذاءها ويضعهما أمام قدميها لتلبسهما :

- ما الذي أتى بك راكضة هكذا ؟ هل من جديد ؟

- سليمة كانت هنا قبل قليل، جاءت تبحث عنك لتخبرك أنّ أحدهم كان يسأل عنك، وتقول أنهم أخبروها أنه مخبر من الاستعلامات العامة.

- المخزن ثانية ! لا أعرف ماذا يريدون مني هؤلاء الأغبياء، متى يستوعبون أنني لا أبحث عن مال ولا جاه ولا شهرة، كيف أجعلهم يقتنعون أنّ كل ما نريده هو الكرامة ؟ ولا شيء غير الكرامة..

- ولما لا تذعن لعرضهم وتخلصنا من لعنة الفقر هذه التي تحول بيننا وبين زواجنا كسور الصين العظيم..

قالتها وهي تبتسم وتتطلع إلى وقع العبارة على تقاسيم وجهه، فلم تنتظر طويلا لترى حاجبيه يصعدان للأعلى حتى كادا يختفيان وسط شعر ناصيته، وعيناه تندفعان للأمام وكأنهما تريدان القفز فوق قدميها.

- وهل سمعت يوما عن ريفي باع كرامته بحفنة دراهم حتى أفعلها أنا اليوم؟ لتحيا العزوبية إذا كانت الخيانة هي ثمن الزواج.. المهم.. لا عليك.. عودي الآن وأخبريها أنني ذاهب للتحضير لوقفة الجمعة، ينبغي علينا إعداد اللافتات والشعارات.

استدارت زينب عائدة وظل هو يتابعها بعينيه حتى اختفت بين جموع المارة، ثم واصل سيره نحو محطة الطاكسيات. لم يتوقف طوال

الطريق عن التفكير في ما أخبرته به فاطمة قبل قليل، ففي الأيام الأخيرة ازدادت تحرشات المخزن به وبأسرته كثيرا، حتى أنّ بعض سيارات الأمن وقوات التدخل قد رابطت بالشارع القريب من مزلهم بشكل دائم، كل المؤشرات توحي بأنّ هناك مخطط ما يحاك في الخفاء، حاول التخلص من ثقل هذه الأفكار الجاثمة على أنفاسه بالتفكير في أخيه الأصغر محمد، وفي حالته الصحية التي أصبحت تدعو للقلق وتثير مخاوف الأسرة بأكملها، فالمسكين أصبح يعيش بكِلية مريضة منذ فترة طويلة، وحتى المستشفى لا وجود لها بهذه المدينة اللعينة... (...فليقبضوا عليّ أو يغتالوني أو يعدموني.. أنا أناضل من أجل حقوق مشروعة، من أجل أخي الذي يذوب كل يوم أمام عيناي بكليتيه المريضتين كشمعة دون أن أملك له شيئا.. من أجل زينب التي انتظرتني سنوات دون أن أتمكن من تحقيق حلمها البسيط وحلمي في أسرة صغيرة تجمعنا.. من أجل كل هذه الوجوه التعيسة التي تركب معي سيارة الأجرة، الحاج علي.. هذا العجوز الذي يركب بجانب السائق.. لماذا يكون مضطرا للتنقل ثلاث مرات في الأسبوع إلى تطوان من أجل إجراء حصص تصفية الدم؟ أليست الحسيمة مدينة كسائر المدن ؟ أم أنّهم ما زالوا يعتبروننا أوباشا لا يستحقون العيش بكرامة...

حرب أفكار شديدة الوطيس كانت مشتعلة في داخله، لكنه عاد ليستجمع شجاعته وقوته من جديد ويتخلص من تلك المخاوف التي تحاول التسلل إلى تفكيره دائما، وعقد العزم مرة أخرى على المضيّ في هذه الطريق بلا رجعة أو تردد. وسرعان ما أوقف انسياب نهر الأفكار والذكريات المتدفق في أعماقه بقوة، وحمل المصحف وشرع يتلو آياته

بصوت مرتفع لعلها تمنح شيئا من السكينة تخفف عنه ألم الجراح، وكان صوته يسبح في ممرات السجن القريبة من غرفته فتهتزّ لها أرواح باقي السجناء القريبين من عنبره.

❖❖❖

وعلى طراس مقهى فرنسا كانت زينب تحكي لي ما علق بذهنها من قصة صاحبنا الرّيفي بحرقة، فتحضرني صورة كوثر وهي تركض أمامي في حديقة الجامعة كطفلة صغيرة تسابق والدها.. لم أكن أعرف من أين تستمد تلك الحيوية المفرطة، ترقص دون حاجة لصوت موسيقى تضبط إيقاع رقصها، تصرخ، تزغرد بأعلى صوتها حتى يلتفت من حولنا من طلاب فأشعر بالخجل وأتظاهر أنني لا أعرفها حتى يستدير الجميع، وهي تضحك بأعلى صوتها.. قامتها القصيرة وجسدها النحيل يجعلان منها عصفورة لا تثبت أو تستقر على غصن، نطوف الحديقة وأيدينا متشابكة مع بعضها جيئة وذهابا دون أن نتعب.. وبعد الزوال نغادر الكلية صوب شاطئ مانيسمان لنمارس هوايتنا المفضلة بمراقبة سفن الصيد البعيدة حيت تلتقي السماء بالمحيط الأزرق الشاسع.. الآن هي ليست هنا معي.. أو أنا لست هناك بقربها.. أيعقل أن تفارق الروح الجسد ويبقى كلاهما على قيد الحياة ؟ أيمكن أن أصمد هكذا جسدا بلا روح مدة أطول ؟ وهي.. ! يقولون أنّ الأرواح تحلّق طيلة النّهار في السماء وفي اللّيل تعود لتسكن أجسادها... أيعقل أنّ روحي ما زالت تسبح في السماء منذ افترقنا ؟

قطَعَتْ عليّ زينب حالة شرودي وهي تكمل حديثها :

- لو أنّك رأيته وهو في قفصه الزجاجي بقاعة المحكمة، كان كأسد يزأر من قفصه مرعبا من حوله، كلّ العيون تحدّق فيه وتتابع حركاته عن كثب.. وآخرون من أصحاب النظارات السوداء وربطات العنق كنت أراهم يتحاشون النظر إليه رغم أنهم متيقنون أنّه مشلول الحركة داخل ذاك القفص.. فقط يكتفون بمراقبة حركات القاعة وما يدور فيها من أحداث ويروج من حوارات وجدالات صاخبة. والمثير أنه لم يتراجع قيد أنملة عن مبادئه وأفكاره. كان يصيح فيهم مهددا حينا، وفاضحا لمسرحيتهم المحبكة القصة والسيناريو أحيانا أخرى. كانت عيونهم تعكس صورة ما يروج في أعماق نفوسهم المريضة.. حقد دفين، ورغبة جامحة في سحق كل ما من شأنه فضح جرائمهم البشعة في حق الوطن والفئة المسحوقة العريضة من قاطنيه. كانوا يكذبون الكذبة ومن كثرة ما يدفعون لمرتزقة الإعلام من مبالغ للترويج لأكاذيبهم تلك، ينتهي بهم المطاف مصدقين لها. حوّلوا المناضلين إلى خونة وانفصاليين، والمطالبين بحقهم في الصحة والعيش الكريم إلى مجرمين ومخربين ومزعزعين لاستقرار الوطن. وجعلوا من الخونة ولصوص المال العام شرفاء ورموز للوطنية ووشحوا صدورهم بأرفع الأوسمة.

قامت زينب من الكرسي الإسمنتي وأمسكت بيدي وسحبتني متوجهة بي في اتجاه "البرانس مولاي عبد الله".

- لن أضيف كلمة أخرى حتى تقتني لي حصتي المعتادة من المثلجات.. فقد جفّ ريقي من الكلام.

كان زقاق البرانس مزدحما بالمارة، سيول من الناس تصبّ في الاتجاهين. البعض يتحلق حول زجاج متاجر الملابس يتطلعون لما عرض داخلها من ألبسة مختلفة. محلّ بيع المثلجات توارى تماما عن الأنظار من طول الطابور الممتدّ أمامه ممن ينتظرون دورهم للظّفر بكأس مثلجات. كعادتها سحبت زينب من يدي المائة درهم وتسللت بين أجساد الواقفين غير عابئة بنظراتهم التي تأكلها من قدميها لشعر رأسها الأشعث. وما هي إلاّ ثوان حتى عادت تحمل المثلجات وتلعق بلسانها ما سال منها على أصابعها.

❖❖❖

تجري الأيّام بسرعة كعادتها دونما اكثرات لمن يسقط خلفها، ويحدث أن نصحو ذات صباح فنقف كعادتنا أمام مرآة الحمّام نتطلّع لوجوهنا وهيأتنا، فنكتشف فجأة أنّ من نراه أمامنا في المرآة ليس نحن.. إنّه شخص آخر مختلف تماما عنّا، كيف يكسو البياض رأسنا على غفلة منّا.. ونتساءل متى استوطنت تلك التجاعيد والانكماشات وجوهنا.. فلا نملك إلاّ أن نبلع ريقنا ونحاول جاهدين إخفاء ما استطعنا منها.. ومع الأيّام نعتاد على رؤيتها على وجوهنا ونتوقف عن محاربتها بعدما نكون قد استسلمنا لها تماما.

خرجت مسرعا ذلك الصباح وقدت سيارتي صوب محكمة الاستئناف دون أن أمنح المحرّك دقائق كي يقوم بحركاته التسخينية المعتادة، استعدادا لسباقات اليوم التي لا تنتهي. يرنّ هاتفي ويلوحُ لي اسم زينب على شاشته، تسألني إذا ما كنت سأتخلّف عن حضور جلسة اليوم، أجبتها أنني في الطريق إليها. عند مدخل المحكمة تجمهر عدد من المناضلين يحملون

لافتات تعبّر عن تضامنهم مع المعتقلين، بعضهم كان يضع لصاقا على فمه تعبيرا عن رفضه للقمع الممارس على حرية التعبير من طرف السلطات. هرولت صوب قاعة الجلسة التي كانت تدور داخلها فصول محاكمة يوسف ومن معه، القاعة مكتضة بالحضور، عدسات الكاميرات ممنوعة من التقاط الصور رغم أنّ عدد الصحفيين يفوق عدد أفراد عائلات المعتقلين والحضور. المحامون ببذلاتهم السوداء يتكدسون في المقاعد الأمامية كالغرابين السّود، وبعضهم لم يجد مقاعد شاغرة فاكتفوا بالوقوف في ممرات القاعة.. صوت يوسف كعادته يرتفع من داخل الصندوق الزجاجي مدويّا، كان يدافع عن أحد الصحفيين المعتقلين بسبب تغطيته لأحداث الريف، رغم أنّ الصندوق الزجاجي يحجب الصوت عمن في القاعة، إلاّ أنّ صوت يوسف كان يتسلّل من شدّة الصياح بين الفينة والأخرى إلى الخارج، سمعته وأنا أبحث بين الحاضرين عن زينب يصيح :

- عيب عليكم سيدي القاضي أن تقبلوا بأن يعامل صحفي بهذه الطريقة.. إنها إهانة للصحافة وللوطن بشكل عام.. أهذه هي حرية التعبير التي تتشدقون بها صباح مساء في منابركم المأجورة ؟

أهذه هي دولة المؤسسات التي تفنّن في نحتها دستوركم المعاق ؟

لو أنّك يا يوسف تعلم بأنّ الصحافة قد عرفت إهانة أكبر من اعتقال هذا الصحفي الذي يقبع جانبك داخل القفص الزجاجي منكمشا ومنزويا في صمت.. لو أنّك تعلم أنّ صحفيا آخر من الصحفيين الأحرار المعروفين بجرؤتهم وحيادية أقلامهم قد تعرّض لإهانة أكبر من تلك التي يتابع بها من

يجلس بجانبك. فلا أحد كان يتوقّع أو يتبادر إلى ذهنه بأنّ النظام قد يفكّر ذات يوم في الزجّ بصحفي من حجم شفيق في غياهب السجون بتلك التهم المقزّزة الغليضة الثقيلة، لقد حوّل النظام القضاء إلى خيّاط يفصّل التهم لكل معارض على المقاس، أذكر أنّني سألت ذات يوم زوجة شفيق عن قصّة اعتقاله فلم تجبني، واكتفت باطلاعي على قصةّ قصيرة كانت قد دوّنتها على مذكرة صغيرة من مذكراتها، جاء فيها :

"...ابتسمت له بعينيها الخضراوين ابتسامة شيطانية ماكرة.. ولأنه كان يعامل موظفي صحيفته معاملة خاصة تلغى فيها كل الأعراف والبروتوكولات، بادلها الابتسامة بمثلها وهم بالصعود إلى مكتبه، أمسكت مرفقه بلطف وطلبت منه التقاط صورة سيلفي للذكرى... ابتسم لها من جديد وعدل ربطة عنقه وهو يرفع عينيه نحو الهاتف المحمول المشدود بأصبعين تفوح منهما رائحة المكر والخديعة، اقتربت بنهديها من صدره مبررة هذا الاقتراب المفخخ بتأطير الصورة بشكل جيد يجعلها خالدة خلود اسمها في تاريخ الصحافة المغربية والعربية... ثم تيييييك.... في العاصمة كانت الأيدي الخفيّة قد تلقفت الصورة ومعها مقطع فيديو لم ينتبه له صاحبنا الذي جمع في دماغه الكبيرة كل أخبار ومكر ودسائس العالم، إلا مكر النساء وكيدهن.. لم يكن يفقه فيه شيئا...

استمرّ صاحبنا في حروبه الدّونكيشوطية يحارب الطواحين الهوائية والتماسيح والعفاريت.. وذات يوم وبينما هو يرقن آخر حروف افتتاحية جديدة من افتتاحياته المسمومة، تفاجأ بجيش من القوات الأمنية مدججين بآخر صيحات الأسلحة الثقيلة والخفيفة يقتحمون مكتبه، ولشدة غباءه خيل له

في البداية أن مقر جريدته قد يكون هدفا لعملية إرهابية فطنت لها الأجهزة الأمنية... فهمّ بالخروج شاكرا عناصر القوات التي اقتحمت مكتبه بدون موعد مسبق، ليتفاجأ بأحدهم يسحبه نحوه بقوة ويضع الأصفاد في يديه... نزل من سيارة الشرطة مصدوما مذعورا.. دخل ولاية الأمن لا يعرف أي القدمين يقدّم وأيّها يؤخّر... أبصر من بعيد فتاة شقراء بسروال جينز لاصق يُظْهِرُ تضاريس الجسد القابع تحته... اقترب منها أكتر وأكثر ممحصا النظر وساحبا معه رجلي الأمن الممسكان بمعصميه لأنّ النظارة لم تعد هي الأخرى قادرة على تقريب الصورة من رعب الموقف... فاكتشف أنّها هي صاحبة السّيلفي. لكنها لم تطلب منه هذه المرة صورة سيلفي للذكرى... لأنها ببساطة كانت متأكدة بأنّ عشرات عدسات المصورين كانت تلتقط لهما صورا للذكرى...".

– مادام شفيق الرباط في 17 فبراير 2018 -.

❖❖❖

كانت زينب تجلس بين بعض أهالي المعتقلين تتابع بعينين شاخصتين حركات حبيبها يوسف وهو داخل الصندوق الزجاجي، وتمسح بين الفينة والأخرى بأصابع يديها الدّموع المنهمرة من مقلتيها. حاولت الاقتراب منها أكثر.. غير أنّ أحد رجال الأمن حال دون ذلك.. فاكتفيت

بمتابعة فصول المحاكمة من بعيد، وما إن أعطى القاضي الكلمة ليوسف كي يجيب عن أسئلة النيّابة العامة، حتى انفجر صارخا في وجه الغرّاق :

- بدل أن تسألني عن سبب توصلي بسترة واقية للرصّاص.. أخبرني أوّلا أين وصلت نتائج التحقيقات حول جريمة انتهاك عرضي وتصويري عاريا داخل أقسامكم الأمنية.. ومتى نرى من أدخلوا عصيّهم في مؤخرتي بمخافركم، داخل هذا القفص يحاكمون..

يقاطعه القاضي ضاربا بعصاه على الطاولة بقوة محدثا صوتا مدويّا صمت على وقعه كلّ من في القاعة.. غير أنّه سرعان ما أنهى يوسف هذا الصمت وهو يصرخ من جديد مطالبا بحقه في معرفة نتائج التحقيق حول الفيديو الذي ظهر فيه عاريا داخل أحد مخافر الشرطة بشكل مهين وحاط بالكرامة.

ممّا جعل القاضي يأمر بإخراجه من القاعة فورا.. لترتفع أصوات من معه من رفاق النضال دخل القفص الزجاجي، وتتبعها أصوات هيئة الدفاع، فيضطر القاضي إلى رفع الجلسة وتأجيلها إلى أجل غير مسمّى.

❖❖❖

خرجت زينب من القاعة كعادتها منهارة تماما، عيناها تكسوهما حمرة تشبه تلك التي تصيب العيون عند مرضها بداء الرّمد.. وما إن وقع بصرها عليّ حتى هرولت إليّ مرتمية في حضني وأجهشت بالبكاء. كنت أمسح على ظهرها وشعرها مهدّئا من روعها، وهي تنتحب وترتعش كمن

أصابها مسّ. كلما عايشت تفاصيل ويوميات قصة حب زينب ليوسف، كلّما زاد إيماني بمقولة الفيلسوف – طاغور – :

...متى أحبّت المرأة.. كان الحب عندها دينا، وكان حبيبها موضع التقديس والعبادة...".

توجهت أنا وزينب إلى مرآب السيارات، حيت رمينا بأجسادنا على مقاعد السيّارة واتجهنا نحو مكاننا المفضّل دون أن ننبس بكلمة، كان كل منا ضائعا في بحر أفكاره، وكأنّ الكلام لم يعد يسعفنا للتعبير عما يختلج أرواحنا من مشاعر وأحاسيس متضاربة، جلسنا على طراس مقهى فرنسا نمارس هوايتنا المفضلة بمشاهدة جحافل الناس التي تمرّ أمامنا، ونحتسي كوب قهوة سوداء كسواد العالم من حولنا.. تم ودعنا بعضنا في صمت.

الفصـل الخامــس

حين تحاكم شاعر أو روائي... فأنت تحاكم
حضارة وعقل أمة... وحين تعتقله... فإنك تستدعي
التاريخ ليشهد على الواقعة...

« قصيدة : زْطَـمْ وزيدْ زْطمْ »

ازْطَـمْ وزيدْ زْطَـمْ
اكذبْ.. اسْـجنْ ..
تْحرّكْ زيدْ في الظلم
عَـذّبْ.. مَـرْمَـدْ ويّاكْ تْـحَـنْ
خليه شعار بيه تحكم
لا يهمك جنس.. لا يهمك سن
عرّي.. طلّع صبعك ويّاك تحْـشَمْ
زيد في تعذيبك.. ياك التعذيب عندك فنْ
اسرق.. انهب.. خلي فلوسك كيف التبن
ولكن صدقني لابد في يوم غادي تندم
لابد الصمت يشعل نار
والثورة تخرج من جديد من دار لدار
سول العيون اللي دموعها نازلة أمطار
سول القلوب اللي دمها بركان وثار
سول الطير اللي تبكي فوق الأشجار
سول الحوت الحزين في عمق البحار
غير طغى وزيد في الطغيان
صورني في إعلامك وأنا عريان
قول عني انفصالي..
زول لي سروالي

سميني إرهابي.. سميني بوهالي
مازال شمس الحقيقة تبان
مازال الحلمة يورثوها عيالي
ومازال الحرية نعزفوها الحان.. ».

خرجت من باب الإدارة المركزية منهارا لا أعرف أيّ طريق سأسلك، أسئلة لجنة التفتيش كانت ما تزال ترنّ في أذني وكأن فصول المحاكمة ما زالت مستمرة :

- من تقصد في قصيدتك هذه ؟
- واش كتهضر على سيدنا ؟
- واش عارف فين ممكن يوصل بيك هاد الكلام ؟ جاوب...

أن تعتقل منضلا سياسيا أو تقمع مناضلا يطالب بحقه في الحريّة فالأمر يبقى إلى حدّ ما داخل إطار عاداتنا العربية، ولكن أن تقمع كاتبا أو شاعرا وتحاول وضع كمّامة على فمه مستغلا مورد رزقه فتلك حكاية أخرى، حكاية لم يكتب عنها أكثر الروائيين تشائما في تاريخ الأدب.

الفصـــل السّادس

(يمكنك أن تقطع كلّ الأزهار و لكنك لا تستطيع
أن تمنع الربيع من القدوم. - بابلو نيرودا)

كان المقهى شبه فارغ إلاّ من رجلين مسنّين يحتسيان الشّاي بعيون ذابلة، وقبالتهما جلست الناذلة على كرسي وقد وضعت إحدى رجليها على كرسي آخر مقابل لها، غير عابئة بصايتها القصيرة التي ارتفعت إلى أعلى خصرها كاشفة عن كل تفاصيل البضاعة، كنت أحاول جاهدا أن أمنع عيناي من النظر إلى تلك الكتلة اللحمية الحمراء التي يسيل لها اللعاب، لكن شيطاني كان يوسوس لي بأن لا أحرم نفسي متعة مواصلة النظر والتمعّن في خلق الله، أحسست بشيء ما داخل سروالي يتحرك ببطء، فعدلت جلستي حتى لا تفضحني الخيمة التي انتصبت فجأة في مقدمة سروالي بشكل عشوائي، وعدت لأنظر إلى المسنّين الجالسين بجانبي تفاديا لتطوّر الأمور إلى ما بعد انتصاب الخيمة.

كثيرة هي الوجوه التي تمرّ علينا في هذه الحياة فتعلق صورتها في الذاكرة، وقد نتذكرها أحيانا أكثر من وجوه خالطناها لأيام أو شهور أو سنوات.

❖❖❖

قبل أن أبلغ نهاية الثلاثينات كنت أغبط المتقاعدين، كنت أرى المتقاعد كحمّال بلغ بكيس الإسمنت سطح عمارة ووضعه جانبا واستراح، والآن وأنا أرى العمر يركض سريعا تغيرت نظرتي للحياة. المتقاعدون في البلدان المتقدمة ليسوا كالمتقاعدين في بلداننا، ففي بلداننا المجتمع يعتبر الإنسان كبطّارية، يرمي بها إلى سلة المهملات فور انتهاء مدة صلاحيتها، بينما نرى حياة المتقاعدين في البلدان الغربية متجددة لا تنتهي، وما على من

يخالفني الرأي سوى أن ينتبه لطوابير السيّاح ممن يتوافدون على بلداننا ليرى أنّ الشريحة العمرية الغالبة عليهم هي شريحة المسنّين.

نظرت إلى ساعتي فوجدت أنها قد تجاوزت الخامسة عصرا، أخرجت هاتفي النقّال وفتحت تطبيق الواتساب كي أتأكّد أن الموعد الذي حدّدته مع صديقتي سعيدة فكري كان هو الرابعة والنصف، ليس من عادتها مخالفة المواعيد، فالسنوات الطويلة التي قضتها بأمريكا كانت كافية لتجعل منها شخصية مختلفة في تفكيرها وتصرفاتها عن تفكيرنا نحن الذين تربينا في مجتمع علّمنا منذ نعومة أظافرنا بأنّ احترام المواعيد ليس أمرا مهما، فأنا ما زلت أذكر كيف كان يتأخّر المعلمون عن حجرة الدراسة بساعات. خشيت أن يكون قد أصابها مكروه في الطريق فاتصلت بها لأطمئن عليها، فأجابتني أنّها قد أشرفت على الوصول وبأن تأخرها يرجع للازدحام المروري الذي تعرفه الطرق خلال الفترة المسائية التي تتزامن مع خروج الموظفين من العمل.

❖❖❖

أخرجت الورقة التي كتبت عليها كلمات قصيدتي – ولد الزنقة – التي ترغب سعيدة في غناءها، وأخذت أعيد قراءتها مرارا وتكرارا لتعديل ما يمكنني تعديله حتى تكون أكثر انسيابية وإيقاعية :

أنا اللي كْـبَـرْتْ في الزنقة
وسَمَوْنـي بَـرْهوشْ

أنا لي عايش بالخطفة والسرقة
طفولتي تاريخ منقوش
أنا لي قراتني الزنقة بلا ورقة
وعرفت باللي قانون بلادي مغشووش
وبرلمان راس مالو هضرة
كلامهم خاوي ومامنّوش
أنا اللي نهار كبرت
في دريبة وليت سبع وغول
في لحشيش شْريتْ وبَـعْـتْ
وفي الناس شْحالْ نْـهَـبْـتْ
صالوبّار يْصولْ ويْـجولْ
ونْـهارْ تْشدّيتْ وحْـصَلت
دخلوني للحبس مدهول
ضربوني ب10 وتقهرت
وقلت حبسي غادي يطول
الساعة لقيت شافات الحبس حنان
والغمة بدات تزول
في الحبس عاد وليت انسان
كلشي بيا مشغول
في الحبس نسيت عداب الزمان
وتعلمت نكون مسوؤل

دازت أيام الحبس
وخرجت لزنقة واحد أخر
الحبس اللي كانوا ناسو حنان
دواوني وكشفوا الضُّـرْ
وفي الزنقة الناس سدو في وجهي البيبانْ
ولقيت كلشي عليا يهظـرْ
ولد الزنقة الزنقة خرج وبان
قمعوه دابا يَضْسَرْ
البرهوش اكْبَـرْ ليــه الشّـانْ
تمَّ خُــوكُمْ حَـسْ براسو تحْكَـرْ
دَوَّزْ الدم وطيّحْ سْـنَـانْ
وبالزربة المخزن حْضَـرْ
ورجعت للحبس وكان اللي كان
وتم عرفت بلي ولد الزنقة
ما يقبلو غيــر القــبــر

❖❖❖

القصيدة كتبتها في البداية لتكون قطعة راب لأحد السجناء الشباب الذين يهوون هذا النوع من الغناء، غير أنّ سعيدة فكري أعجبت بها وطالبتني بتسليمها لها، وهي الآن في طريقها إليّ كي أسلّمها هذه النسخة الأخيرة المعدّلة والجاهزة لتكون تحفة أخرى من تحف هذه الفنانة الكبيرة،

أذكر أنّني قد أخبرتها في لقاءنا الأوّل أنّ القصيدة تتضمن عبارات قد لا يستحسنها مقصّ الرقيب، لكنّها أصرّت على الاشتغال عليها مشيرة إلى أنّها تبحث عن هذا النوع من القصائد بالذّات، لأنها حسب وجهة نظرها تعكس واقع شريحة كبيرة من المجتمع، شريحة هشّة تعاني في صمت.

بعد دقائق لاحت لي سعيدة قادمة من الجهة المقابلة من الشارع، كانت تضع نظارات سوداء تخفي عينيها وجزء كبيرا من وجهها، وترتدي سروال جينز أزرق باهث اللون، كانت تسير بخطى متناغمة وكأنها تعزف بقدميها على الرصيف معزوفة من معزوفاتها الرائعة، وما إن وقعت عيناها عليّ حتى ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة، صافحتني ووضعت حقيبتها ونظارتها على أحد الكراسي الجانبية وجلست بعد أن اعتذرت عن تأخرها رامية باللوم على زحمة الطريق. كنت كلما أمعنت النظر في عينيها أكثر أقرأ فيهما قصصا وروايات كثيرة تلخّص مسار امرأة مختلفة ، إنها هرم من أهرام الفنّ التي كتبت اسمها بماء الذهب في تاريخ الأغنية المغربية والعربية، نجوم كثيرة بزغت بسرعة واختفت بنفس السرعة، وظلت هي كنجم قطبي لا يأفل أبدا.

دردشنا معا طويلا وتبادلنا الكلام حول مستجدات الأوضاع السياسية والفنية بالوطن، وتوقفنا طويلا عند نقطة طريقة تلحين كلمات أغنية ولد الزنقة، فقد كانت سعيدة ترغب في أن تجعلها شيئا جديدا مختلفا تماما عن الستايل الذي عرفت به في الساحة الفنية. تم ودعتني وغادرت بعد أن تركت في نفسي وقعا كبيرا، فلم يخطر على بالي في يوم من الأيّام أنّني سأجلس مع الفنانة التي كنت مهووسا في شبابي ومراهقتي بجمع شرائط أغانيها

وألبوماتها وصورها على طاولة واحدة، أو أنّها ستؤدي لي قصيدة من قصائدي بصوتها الملائكي الشجيّ. شربت ما تبقى من قهوتي وغادرت في اتّجاه المنزل، وكلي شوق إلى ذلك اليوم الذي سأسمع فيه قصيدتي تغنى في أكبر المهرجانات والساحات الفنية والإذاعات والقنوات الفضائية.

❖❖❖

خرجت ذات صباح من منزلي مسرعا أسابق الزمن، وسرت على طول الشارع الذي يفصل الحي إلى قسمين، هذا الحيّ العملاق الممتد على مدّ البصر، جمع داخل جدران منازله عشرات الآلاف من البؤساء الذين لفظهم الصفيح. الغبار المتطاير من الأزقة التي تم تبليطها بالخرسانة المغشوشة بدل الإسفلت يعمي الأعين، في هذه المملكة البئيسة كل شيء مغشوش، البناء مغشوش، والمواد الغذائية مغشوشة، والطرق مغشوشة، والتعليم مغشوش، لذلك تراه ينتج كل سنة ملايين العاطلين، قطاع الصحة مغشوش، والأدوية التي تباع في الصيدليات مغشوشة، في هذه المملكة ينبغي عليك أن تهتم بصحتك قدر المستطاع حتى لا تمرض، لأنك إذا مرضت فستفتح على نفسك أبواب جهنّم، فلكي تحصل على موعد طبّي في مستشفى عمومي عليك أن تنتظر أسبوعين أو ثلاثة، وإذا كنت سيّء الحظ وطلب منك الطبيب إجراء تصوير إشعاعي أو ما شابه فسيكون لزاما عليك تحمّل آلام المرض ما يزيد عن ستة أشهر حتى يحين موعد الفحص، كثيرون هم الذين ماتوا قبل أن يحين دورهم، والبعض يحالفهم الحظ ويتعافون قبل موعد إجراء التصوير الإشعاعي..

بلغت المقهى المقابل لدائرة الأمن حيت أجلس غالبا لأحتسي كوب قهوة مع صديقي الكوميسير، هو أربعيني ذو رأس غليظة مثلي، ينحدر من منطقة عبدة بإقليم آسفي التي أنحدر منها أنا أيضا، أقضي ساعات طويلة برفقته داخل الدائرة الأمنية أو على المقهى، لا أعرف لماذا أقضي معه كل هذه الساعات الطويلة رغم أنّني أمقت كل طباعه وتصرفاته، خاصة عندما أراه يماطل في تلبية طلبات المواطنين.. ثم يهمس لي بأنّه يربّيهم حتى يتعوّدوا على النظام واحترام بروتوكولات الإدارة، أذكر أنّه دعاني ذات يوم لبيته، كان منزله عبارة عن فيلا كبيرة مترامية الأطراف بحي عين السبع الراقي، أذكر أنّني تمنيت يومها أن يكون لي فيلا مثلها، لكنني سحبت أمنيتي بعدما تذكرت أنّني لست كوميسير.. وأيضا لست قائدا أو برلمانيا.. فأنا موظف بسيط خلقت لأعيش في حي السلام حيت الفوضى مع الحمير.

❖❖❖

جلست بالمقهى وأرسلت له رسالة عبر تطبيق الواتساب أشعره أنني قد حضرت، فأجابني برسالة يدعوني من خلالها أن ألتحق به بالمكتب. بعض النسوة ينتظرن أمام بناية الدائرة، في هذه المملكة تجد النّساء في كل المرافق العمومية والخاصة، في الأسواق والمستشفيات ومراكز الأمن، وفي الحمامات والحدائق والمقاهي وأمام أبواب السجون، أينما ذهبت تجد النساء يشكّلن الأغلبية، قد يكون ذلك راجع إلى الفراغ الذي يعانين منه، يحكى والله أعلم أنّ منهنّ من تبحث عن زوج في تلك الأماكن، فالإحصائيات تحدث عن ارتفاع مهول للعوانس. أطللت برأسي على مكتب الحاج الكوميسير، فلوّح

لي بيده للدخول، كانت تجلس أمامه سيدة شابة وجهها يحوي تشكيلة من الألوان كجداريات روض الأطفال، جلست على الكرسي المقابل لها، سمعته يحدثها على أنّها ما زالت شابة وأنها جميلة بلكنته القروية المثيرة للسخريّة والضحك، وهي كانت كلما سمعته يشير إلى جمالها تبتسم وتحرك شعر ناصيتها بيدها، قال لها بأن زوجها لم يعد صالحا كزوج، وبأنه ينبغي عليها أن تعيد النظر في مسألة استمرارها معه، تم طلب منها رقم هاتفها الشخصي كي يتصل بها يوم الأحد القادم مبررا ذلك بأنّ لديه ما يخبرها به، والمكان والزمان لا يتسعان لذلك، ابتسمت له من جديد وتلت عليه رقم هاتفها تم مدت له يدها مصافحة وهي تقوم للخروج، ظل الحاج ممسكا يدها براحتيه الاثنتين مدة طويلة، ثم تركها تغادر وعيناه تتفحصان بجحوظ تفاصيل مؤخرتها التي بدت وكأنّها تتحدّى حدود الجلباب الضيّق.

- صافي ! دوخاتك..ما باغيش تتغير,
- واش اللي شاف هذاك الخير يتغيّر..

قالها وهو يبتسم، تم صرخ مناديا على زميل له في العمل يطلب منه إحضار قنينتي والماس من المقهى.

كان الحاج رجل أمن من طينة رجال الأمن المعروفين بعدم تفويت أيّة غنيمة أو "همزة" كما يطلق عليها هو، سواء كانت مالا أو أشياء عينية أو حتى جسد امرأة، وعندما أنصحه بالعفاف عن ذلك وألمّح له إلى تقدمه في السّن وضرورة عدوله عن تلك الممارسات خصوصا بعد حجه وزيارته لبيت الله الحرام، فيجيبني بجوابه المعتاد :

- المحلوبة حليب والمعصورة دم..

ليته يعرف بأنّها جميعها دماء، إنّهم يشربون دماءنا في كلّ المراكز، إذا أردت أن تحصل على شهادة سكنى فعليك أن تدفع.. في المستوصفات عليك أن تدفع كي يكشف عليك الطبيب.. وأن تدفع للمرضة إذا رغبت في الحصول على بعض تلك الأدوية التي يخطّها لك طبيب المستوصف.. في مخافر الشرطة عليك أن تدفع أيضا وإلاّ حوّلتك محاضرهم إلى ظالم ولو كنت مظلوما.. وحتى في بعض المدارس والجامعات عليك أن تدفع، أذكر يوم عاد أحد زملائي في العمل الذي كان يتابع دراسته الجامعية بفاس بشعبة الشريعة الإسلامية غاضبا، فسألته عن سبب غضبه ليجيبني أنّ أستاذ أصول الفقه طلب منه أربعة آلاف درهم إذا أراد ان يحصل على نقطة جيدة دون حضور المحاضرات، إنهم يحلبوننا كما تحلب الأبقار، وفي النهاية يقولون كما يقول صديقي الحاج.. المحلوبة حليب والمعصورة دم...

❖❖❖

خرجت من عند الحاج قاصدا منزل والداي القريب من الدائرة الأمنية، فكلّما أحسست بنوع من الضيق والهمّ يتسلّل إليّ أقصد منزل الوالدين، فدعاء الوالدة كان دائما الترياق السحري الذي يعالج كل تلك الهموم والأحاسيس السّلبية بجرعة واحدة.

صبيحة أحد أيّام نهاية الأسبوع استيقظت على صوت رنين هاتف النقّال يعلن عن التوصّل برسالة جديدة على تطبيق الواتساب، حملت الهاتف وفتحت التطبيق بيدين ترتعشان من شدّة النعاس، كانت الرسالة من الفنانة سعيدة فكري قد أرسلت لي رابطا لأغنية ولد الزنقة التي كتبت لها كلماتها، اعلى ما يبدو أنّها أطلقتها صباح ذلك السبت على موقع اليوتوب، فتحت الرابط وكدت أطير من مكاني فرحا وأنا أشاهد الفيديو كليب الجميل واستمع للأغنية. ما أروع أن تسمع كشاعر قصيدة من قصائدك يؤدّيها فنّان مرموق له ملايين المعجبين، سارعت إلى قراءة التعاليق أسفل الفيديو، كانت كلها تتحدث عن كلمات الأغنية وتصفها بالكلمات الساحرة والهادفة، إحدى المعجبات كتبت معلقة – هذا هو الفن.. ماشي بحال عندو الزين عندو الزبل..- قمت من فراشي وكأنّني لم أكن قبل ثواني شبه مخدّر تحت تأثير النوم، وشرعت أنشر رابط الأغنية في جميع كبريات مجموعات وصفحات الفيسبوك، كما أرسلتها لجميع أصدقائي ومعارفي.. تمنيت آنذاك لو أرسلها لزوجتي كي أقول لها بأنّها ستخسر فنّانا وشاعرا مرموقا، لكنني لم أملك من الجرأة ما يكفي لفعل ذلك، أو بالأحرى كرامتي كانت تمنعني من أن أبدو أمامها بمظهر النّادم الراغب في الصّلح والقرب، خاصة أنّني توصلت باستدعاء من محكمة الأسرة قبل يومين أو ثلاثة لحضور أولى جلسات ملفنا.

❖❖❖

قضيت ذلك الأسبوع منتشيا كالخارج منتصرا من حرب، الكم الهائل من الرسائل الإلكترونية والإسمس والمكالمات المهنّئة منحتني نشوة

خاصة لم يسبق لي أن شعرت بها. وستزداد جرعات تلك النشوة وأنا أطالع في الأيام الموالية لطرح الأغنية، عناوين عريضة تتضمن اسمي إلى جانب اسم الفنانة سعيدة فكري على كبريات الجرائد، كنت أقتني أعداد تلك الجرائد وألتقط لها صورا وأنشرها على حسابي الفيسبوكي وأرسلها لجميع أصدقائي، حتى رؤسائي في العمل لم استثنهم من رسائلي تلك، غير أنّ تلك الأحاسيس والفرحة لم تعمّر طويلا، فقد علمت من صديقتي سعيدة أنّ الأغنية تعرضت للحصار والمنع من العرض على الفضائيات والإذاعات الوطنية، لا لشيء سوى أنّني قلت فيها بأنّ قانون الوطن مغشوش، وأنّ كلام البرلمانيين فارغ لا طائل منه.

الفصـل السّابــع

(الفراق والحنين وجهان لعملة واحدة لا تشتري إلاّ الألم...)

أربعة أشهر مرّت على على مغادرة كوثر للمنزل، كانت طويلة وثقيلة عليّ بشكل يشعرني كما لو أنّها أربع سنوات، كل شيء داخل الشقة يذكرني بها وبالأولاد، أحذية طفلاي المبعثرة عند مدخل غرفتهما تنفث داخل عروقي قشعريرة باردة تتغلغل إلى أعماق أعماقي، لعبة سبونج بوب الكبيرة الحجم مرمية ووجها على الأرض، كما لو أنّها تبكي هي الأخرى شوقا لصغيري الذي لم يكن يفارقها حتى في لحظات استعداده للنوم، كان يعانقها ويقبلها قبل أن ينام، لابد أنّه هو أيضا يشتاق لها كما تشتاق له. صورة طفلي الكبير المثبتة على جدار الغرفة فوق سريره مباشرة وهو يبتسم، بدا كما لو كان سعيدا برؤيتي، تفقد جفناي القدرة على مقاومة انسياب الدموع، فتتدفق هذه الأخيرة كشلاّل يرمي بنفسه من أعلى ذقني إلى قدماي. لم أعد أطيق دخول الشقة منذ غادروها، لأنني كلما دخلتها أحسست وكأن أرواحهم تتجول معي داخلها، أسمع أصوات طفلاي تتسلل من خلف أبواب الغرف وهما يناديانني بابا، أجمل ما في الحياة الأسرية هو ذلك الضجيج والصخب الذي يصدره الأطفال، صحيح أنّنا لا نطيقه حين نكون بينهم، ونصرخ في وجوههم باحثين عن الصمت، ولكن قيمة ذلك الصخب في حياتنا لا ندركها إلاّ عندما يتوقف ويختفي أو يغيب.

❖❖❖

حملت قميص طفلي الصغير ووضعته على أنفي آخذا نفسا عميقا لعلّني أجد ريحه، ثم حضنته بقوة واستلقيت على سريره وأنا أتطلع لصورة شقيقه الأكبر الذي ما يزال يبتسم لي. حاولت مرارا عبثا تذكر سبب خلافي

الأخير مع والدتهما دون جدوى، فما أكثر خلافاتنا التي تبدأ صغيرة من شيء تافه وتكبر ككرة ثلج وهي تتدحرج على أطراف ألسنتنا، حتى تتحول إلى جبل جليدي ضخم يهوي على رؤوسنا.. ما زلت أذكر جيدا حين تدخّل بيننا ذات خلاف إمام مسجد الحيّ ليصلح ذات البين، كان يجلس على السدّاري المقابل لكلينا وقد رفع إحدى رجليه فوق الأخرى، واستند عليها بمرفقه حاملا رأسه بكفه. كان يسهب في سرد قصص الصحابة وزوجاتهم، وكيف كانوا يعيشون أروع قصص الحب التي تفوق ما نراه اليوم في المسلسلات التركية التي أفسدت البلاد والعباد حسب قوله. كان أقرب إلى المهرّج منه إلى إمام مسجد، كثيرون هم أئمة المساجد الذين تحوّلوا من وعّاظ وخطباء إلى مهرّجين وكوميديين يبذلون قصارى جهدهم لإضحاك المصلّين أكثر من أن يحاولوا وعظهم وإرشادهم... أذكر أنه قد سألنا بعدما أنهى قصصه ورواياته التاريخية تلك عن سبب خلافنا، فأصبنا بالخرس ونحن نحدق في عيني بعضنا البعض دون أن نهتدي لسبب الخلاف الرئيسي، فانفجر الجميع ضاحكا.. أذكر أنّ الإمام خرج يومها وهو يجر رجله العرجاء خلفه مقهقها وهو يردد :

– الناس كيموتو في بعضهم وكيبغيوا بعضياتهم وانتوما عاملين فيهم راسكم؟

❖❖❖

خرجت من المنزل أجرّ قدمايّ بتثاقل كمن يغشاه الموت، قشعريرة غريبة تنتابني رغم الحرارة المفرطة ذلك المساء..

حتى لعابي لم أشعر به داخل حلقي وكأنه تجمّد هو الآخر، كل الوجوه التي تمرّ بجانبي تحملق في وكأنها ترى كائنا غريبا يمشي على قدمين..

أمرّ على حمار مشدود بحبل من عنقه إلى عمود الكهرباء، فتحلق أسراب ذباب كطائرات أباتشي نفاثة من فوق ظهره لتحط على وجهي وكأنني أرض العدوّ.. أهش عليها بيدي فترفض أن تبتعد وكأنها مصرّة على إسقاطي كما فعلت طائرات البوينغ 767 ببرج التجارة العالمي في أحداث 11 سبتمبر.. وبعد أن تجاوزتُ مكان الحمار ببضع أمتار عاد سرب الذباب إلى قاعدته الأصلية بعدما أنهى المهمة بنجاح.. احمرار واحتقان كبير في الأنف، وحكّة شديدة في الوجه.. صوت ما بداخلي همس لي :

– يبدو أنّك سوف تصاب بداء الحمار..

ابتسمت رغم الحالة المزرية التي كنت عليها، وأنا أردّ على ذلك الصوت.. أنا كبير الحمير.. فمن يتسبب في شتات أسرته وخراب بيته هو حمار بدرجة بغل..

ما زلت أنا هنا..

وما زلت أنت هناك..

فلتحترق كل المسافات الفاصلة بيننا

فليحترق كل من يحرمني رؤياك..

مسكينة أمّي.. ! لأنّها لم تكن تعرف أنّ الحبّ هو أكثر خطورة من السحر، فالسحر هو استلاب للعقل يؤثّر في ميولات القلب ورغباته، أمّا الحب فهو استلاب للرّوح والعقل والقلب معا دفعة واحدة.. إنّه خروج الروح من الجسد لتفسح المجال لروح الحبيب كي تحلّ محلها..

مسكينة أمي لأنها لم تكن تعلم آنذاك أنّها كانت تخاطب روح وعقل وقلب كوثر..

دخلت إلى مكتبي وأغلقت الباب خلفي كعادتي، صراخ بعض المواطنين أمام باب المؤسسة يتسلل من شقوق الباب والنوافذ ليبلغ أذناي، يتبعه قرع خفيف على الباب..

- أدخل

قلتها بصوت منكسر بالكاد يصل إلى الموظف الواقف في الجهة المقابلة من باب المكتب. يدخل الموظف ورأسه منحني بشكل لافت إلى الأرض ليخبرني بأنّ سيّدة مريضة عقليا تريد أن تدخل إلى المؤسسة بالقوّة، وأنه عندما حاول منعها تجردت من ملابسها بشكل كليّ وصارت تمرّغ جسدها في التراب. فطلبت منه أن يدعها وشأنها ويغلق الباب.

كل أشياء حياتي أصبحت غير مرتبة..

مواعيد العمل غير مرتبة..

مواعيد أكلي ونومي هي الأخرى غير مرتبة..

ملابسي وشعر رأسي وذقني الذين لم أرهما على المرآة منذ غادرت كوثر المنزل.. فهي من كانت تحثني على حلق ذقني لأنّ أشواكه تخزها كما كانت تقول.

أصل النظام في الحياة امرأة.. وأصل الفوضى امرأة.. وأصل الوجود امرأة.. وأصل العدم امرأة.. فلولا حواء لأنهى أدم قصة البشرية من ملايين السنين، فهي من أخرجت البشرية من زمن العدم إلى زمن الوجود..

أتذكر كوثر وعيون كوثر من جديد، فأحمل قلما بين أصابع يدي المرتعشة وأشرع في الكتابة من جديد:

أنا ما زلت هنا عند حافة الذاكرة
أنظر إلى تلك الهوة الساحقة
لعلك منها قد تعود
أنا ما زلت هنا عند حافة الذاكرة
طعامي... رغيف من أيامنا أنا وأنت السابقة
ومائي دم أصبح باردا لحد الجمود
كل شيء هنا يبكي معي

كل شيء هنا عيونه ساهرة
هذا القلم الذي ما زالت كل الحروف في فمه عالقة
وتلك الدموع التي أراها في أعين الورود
الكل هنا يصلي معي لروحك الطاهرة
لعلك يوما تغافل القدر
لعلك يوما لنا تعود
أنا أحببتك كما أنت
بصمتك الذي يشبه صمت الجدار
ببرودك الذي يطفئ لهيب النار
بسذاجتك التي تشبه سذاجة الصغار
أنا أحببتك كما أنت
بقامتك الطويلة
وعيونك البريئة الجميلة
وأسنانك البيضاء كالمحار
أنا مازلت هنا عند حافة الذاكرة
لا يمكنني أن أتركك وأعود
لأنني قطعت لك آلاف العهود
أننا سنحيا معا
نضحك معا
ونبكي معا
وإن متنا حبيبي متنا معا
كما يفعل حرس الحدود

أنا ما زلت هنا عند حافة الذاكرة
شعري الطويل الذي كنت بيديك تمشطه
أصبح أشعتا كأنه شعر ساحرة
وعيوني التي لم تفارق عينيك
تجمدت في السماء كأنها تنتظر قدومك على طائرة
أنا ما زلت هنا عند حافة الذاكرة
وكلي شوق وحنين إليك

الفصـل الـثّامــن

البؤساء في وطني يشبهون العازل الطبي الذي تحمله

المومس في حقيبتها ...

لا يستعمل إلا مرة واحدة وينتهي في القمامة...

« قصيدة : الصـــلاة الأخيـــرة

دعوني أصلي صلاتي الأخيرة
دعوني اصلي في الصفوف الأخيرة
وأذرف دمع عيوني المطيرة
وأشتكي لربي وطنا اغتال أحلامي بكل الذخيرة
دعوني أصلي صلاة قيام
وأنقل للمولى كل الحكاية وكل الكلام
وأحكي بأن بلادي ما زالت اسيرة
وأن الحلال فيها صار سجين
وفي كل الازقة يعيش الحرام
دعوني اصلي وأحكي لربي اشياء كثيرة
بأن الخليفة اضاع الرعية
وأن الرشاوي صارت هدية
وان الحرائر اضحوا سبايا
وان العهر صار حرية
دعوني اصلي صلاتي الأخيرة
دعوني أطيل فيها الركوع
في ارض غنية بها شعب يجوع
دعوني أغسل ذنوبي ببعض الدموع
ثم ادفنوني فلا أنوي الرجوع

دعوني اصلي وأمسح وجهي على ذاك التراب
فأن تحيا في ارض تحكمها الذئاب
ذاك الجحيم وذاك العذاب...».

الفصـــل التاســع

(سأظل أناضل لاسترجاع الوطن لانه حقي
وماضيّ ومستقبلي الوحيد .. لأن لي فيه شجرة
وغيمة وظل وشمس تتوقد وغيوم تمطر الخصب...
وجذور تستعصي على القلع..) - غسان كنفاني -

كانت السّاعة تشير إلى العاشرة والنصف ليلا من ليلة الثلاثاء الأسود. الصمت مطبق بشكل رهيب على القاعة رقم 07 بمحكمة الاستئناف. الكلّ يترقّب لحظة الحسم.. ما هي إلاّ دقائق حتى كسر الشاوش حالة الصمت تلك معلنا عن دخول القاضي. يقف الحاضرون ويجلس الرئيس.. نوع من التشويش والضجيج يسري في القاعة فيقطعه بالضرب على المنصة بقوة.. يعود الصمت ليخيّم على المكان من جديد.. يشرع القاضي في تلاوة التهم المنسوبة للمعتقلين.. تم يتبعها بقرار المحكمة.. يعلو الصراخ ليختلط بنحيب أسر المعتقلين وذويهم وتعمّ الفوضى المكان، يغادر القاضي القاعة مخلفا وراءه عشرات الأجساد الممددة على الأرض مغشي عليها، وعشرات الحناجر التي تصدح وتصرخ رافعة شعارات تشجب الأحكام القاسية والجائرة، وبين تلك الأجساد الممددة على الأرض كان جسد زينب قد تحوّل إلى جثة هامدة بلا حراك.. طلبت قنينة ماء وطفقت أرشّ وجهها ويديها وقد أثّر في مشهد تمددها وفقدانها للوعي بهذا الشكل المثير للأسى والحزن.. فتحت عينيها ونظرت إليّ وهي ما تزال ممددة أرضا.. تم شرعت تصرخ من جديد:

- 20 سنة يا اولاد الكلاب قاتل كنيدي... مجرمين.. مستبدين.. كلاب...

حاولت جاهدا أن أخفّف من روعها وأنا أكرّر لها بأنّ الأحكام تبقى ابتدائية وقابلة للاستئناف، لكنّها كانت في حالة هستيرية يصعب معها تهدئتها وطمئنتها، فما كان مني إلاّ أن أمسكت بيدها وجلست قربها صامتا ومكتفيا

بالنظر إليها وإلى باقي النساء الغارقات في الصياح ولطم الخدود والأطراف.

بعد ساعات كنت أجلس أنا وزينب بمقهى فرنسا نناقش موضوع الأحكام القاسية التي نزلت علينا كالصاعقة، فأكثر المتشائمين كان لا يخمّن أن تتجاوز الأحكام سقف العشر سنوات، كان رقم 20 كرصاصة خرجت من مدفعية القاضي والنظام وأصابت المعتقلين وجميع من حضروا الجلسة في مقتل. علامات الحزن والأسى بادية بشكل لافت على وجه زينب، صوتها تكسوه حشرجة تعرف من خلالها أنّها بالكاد تمنع نفسها من البكاء.. مرت ساعات طويلة على جلوسنا في المقهى ولم تنبس بكلمة، كانت فقط تتنقل بعينيها بين وجوه المارّة وكأنّها تبحث بينها عن وجه يوسف، ثم أدارت وجهها نحوي أخيرا، بدت لي ملامح وجهها كميّت خارج من القبر، عبثا حاولت تحريك شفتيها المرتعشان لكنها عجزت عن ذلك واكتفت بالتحديق في، الضباب الكثيف على عينيها ينذر بمطر غزير.. ثمّ حدث ما توقعته.. فجأة انهمرت دموعها من جديد، كانت جداول الدموع تسيل على وجنتيها وتتساقط كشلالات على عنقها وثيابها. طبطبت عليها براحتي وطفقت أمسح ما استطعت من مياه عينيها، في نفس اللحظة وقف بجانبنا نادل المقهى يومئ لي بأنّ خدمات المقهى قد انتهت، وأنّ الوقت قد حان لجمع الكراسي وإغلاق المحل، أشرت له برأسي أنّنا سنفعل فانتقل للطاولات والكراسي المجاورة يرفعها ويضع بعضها فوق بعض، في الوقت الذي أحطت فيه أنا زينب بذراعي وساعدتها على الوقوف، سرت بها نحو موقف السيارات في صمت، وقدت السيارة في اتجاه مطعم ماكدونالدز بعين الذئاب الذي تعودنا

السهر فيه. أحضرت لها كأس مثلجات من النوع الذي يستهويها، لكنها تركته مركونا أمامها حتى ذاب عن آخره...

❖❖❖

تابعت عجلة الحياة دورانها دون توقّف، لكننا هذه المرة أنا وزينب لم نلحق بها كعادتنا، ربما لأنّنا لم نعد نقوى على المسير، أو أنّنا كنا نخشى إن ركضنا خلفها أن نترك وراءنا أرواحا أحببناها بصدق، وكما ذاب الأيسكريم في ليلة الثلاثاء الأسود ذاك، كانت زينب تذوب يوما بعد يوم، دون أن أملك لها شيئا يوقف هذا الذوبان الذي حوّلها إلى كتلة عظمية تمشي بانحناء على قدمين نحيلتين، العينان الكبيرتان اللتان كانتا تنضحان بالحياة، تحوّلتا إلى ما يشبه قطعتي زجاج غائرتين في حفرتين، والثديان اللذان كانا بارزين كقمتي جبل، انكمشا واختفيا بين عظام قفصها الصدري التي أصبحت بارزة.. وما هي إلاّ أشهر قليلة حتى كنا نسير خلف نعشها المحمول على الأكتاف، ونردد بصوت واحد مكسور أكثر من انكسار أحلامنا وذواتنا:

- لا إله إلاّ الله.. محمد رسول الله

ماذا يعني الوطن إذا لم يعد يمنح أهله سوى الأوجاع..

ماذا يعني الوطن إذا أضحى عشّا ووكرا للدبابير والحيّات والعقارب، تلدغنا صباح مساء وتنفث في أجسادنا سمومها فنتألّم دون أن نموت.. ملايين الأجساد في هذا الوطن أراها تائهة تتألم دون روح..

لقد سرقوا أرواحنا..

سرقوا أفراحنا..

سرقوا البسمة التي كنا نعرضها على وجوهنا..

سرقوا أحلامنا وأيامنا وكل شيء جميل فينا..

لقد سرقوا ما هو أغلى من تلك الأشياء كلّها : حبّ الوطن.. ثم جاؤوا بكل وقاحة يطلبون منا ومن أبناءنا أن نتجنّد للدفاع عن أرض لم نعد نملك فيها موطئ قدم...

غبي من يظنّ أنّ الوطن هو اسم بلد على كناش حالة مدنية أو بطاقة وطنية.. غبيّ من يسنّ قوانين للتجنيد الإجباري والخدمة العسكرية ويخطب فينا بأن نكون أوفياء لوهم أسموه الوطن..

الوطن هو مستشفى تفتح بابها في وجهك إجباريا حين تمرض..

الوطن هو وظيفة تضمن لك إجباريا عيشا كريما..

الوطن هو عدالة اجتماعية بشكل إجباري تجعلك تشعر بفخر الانتماء..

الوطن هو حب يشبه حبّ الأمّ يوزّع على الجميع بالتّساوي..

الوطن هو أن تختار أنت من يحكمك دون أن يكون من اخترتهم خاضعين لسلطة أعلى منهم ومنك..

فكيف لشيء القافلة فيه متوقفة والكلاب هي من تسير.. والكلّ فيه ينبح أن يسمّى وطنا ؟.

كان خبر رحيل زينب بالنسبة ليوسف كجرعة سمّ زعاف استقرّ في جسده الضخم، فصار يأكل منه شيئا فشيئا. أضرب عن الطعام والكلام ولم يعد يرى في هذه الحياة شيئا يستحق أن يعيش لأجله بعد رحيل رفيقة دربه. وما هي إلاّ أيام معدودة حتى فاضت روحه هو الآخر لتلتحق بروح زينب في وطن مساحته السماء، وحدوده الكون، وقانونه الرحمة، رحل يوسف ليلتحق بمن أحبّ، وبقي القتلة يبحثون لقبضات أيديهم عن عنق جديد.

الفصـــل العاشـــر

(ما أعرفه أنّني سأظلّ أكتب لك، وستظلّين بعيدة ...)

- غسان كنفاني -

جلست بمقهى فرنسا وحيدا بعد أن رحلت عنّي زينب، لا أعرف لماذا دائما كل من نحبّهم وتتعلق بهم قلوبنا يرحلون.. رحلت زينب وبقي صوتها يرافقني في كل مكان أتواجد فيه، لقد علمتني معنى الوفاء، كيف تبقى على العهد إلى أن يشهر القدر في وجهك البطاقة الحمراء كي تغادر أرضية الحياة.. ما زالت كلماتها الأخيرة التي همست لي بها قبل أن تفيض روحها الطاهرة ترنّ في أذناي : «الموت ليس نهاية العالم يا شاعرنا.. إنّه بداية جديدة لحياة أفضل ليس فيها ظلم كظلمهم، ولا جبروت كجبروتهم.. لا تحزن يا شاعرنا.. فسأنتظرك بشوق لنلعق كأسي أيسكريم معا كما تعودنا». رحلت زينب قبل أن تتمكن من تحقيق حلمها في ضمّ محبوبها يوسف وتقبيل جبينه كما كانت تأمل وتمنّي نفسها...

مرّت سنة على رحيل زينب والجرح ما زال داميا يرفض أن يندمل، بدا المكان من حولي مليئا بالأعلام الوطنية وصور الملك واللافتات في كل مكان... وأنا أتابع حركة المارّين أمامي، كلّ شيء هنا يذكرني بها، خطرت ببالي قصيدة لي كانت تحبها وتردّدها أمامي في كل حين، أغمضت عيني لأستحضر صورتها وهي تجلس بجانبي تلعق ما تقطّر علي يديها من آيسكريم، وتهمس لي :

مرت سنة..
كل الذباب يحتفل إلاّ أنا
عيد الذباب..
إني أراه يفرك جناحيه على الطريق
وارى مسنا يركع وظهره قد انحنى

وآخر يحرك ذيله كالكلاب
في قريتنا عيد الذباب له تاريخ عريق
تصغي فيه جحافل الذباب لنفس الخطاب
عن تاريخ يعود لكم سنة
وتوصيات لكيف تقتات مما تخلفه الذئاب
وعن عهد جديد منا قد دنا
ونصائح بأن نعتبر الصرصار لنا صديق
وبأن الأسود لم يكن يوما لون الغراب

...مرت سنة
كل الذباب يحتفل إلا أنا
ما زلت احلل في الخطاب
...كيف يعقل أن البحر لنا
...والبر لنا
وكل ما فوق الأرض وتحت التراب
لكن بعضنا مازال يأكل بعضنا
وما زلنا نسكن في الخراب
...مرت سنة
وما زال الجوع والقهر يحتل أرضنا
ومازالت المشانق تلف حول الرقاب
وحتى موضوع الخطاب
ما زال يحكي عن حلم جميل خلف السحاب

وعن شمس سوف تنير ذات يوم دربنا
فيصفق له بحرارة كل الذباب
...إلا أنا ككل سنة
أقف وأتابع من بعيد
كيف أقنع كل جحافل العبيد
...هو ليس عيد
...هو ليس عيد

أشعر أنّ شيئا غريبا قد أصابني، أفكاري أصبحت مبعثرة، وحركاتي هي الأخرى أصبحت غريبة وأقوم بتصرفات بين الفينة والأخرى لم أعهد القيام بها، فقدت السيطرة على حواسي وتصرفاتي. غادرت المقهى تتملكني حالة من الرعب والهلع من أن أكون قد جننت. مرّرت يدي على جسدي أتفقّد ملابسي هل أنا عار ومجرد من الملابس، فقد خيّل لي بأن الجميع ينظر إليّ. توقفت عند إحدى الصناديق القصديرية التي يستخدمها شرطي المرور في تنظيم حركة المرور بإحدى المدارات، وأخرجت ورقة وقلما لأكتب آخر رسالة لكوثر قبل أن أفقد إدراكي للأبد، فلطالما تمنيت أن تكون آخر كلمة تخرج من حلقي لها :

«... هل أغلقت الباب جيدا عليك ؟

هل تأكدت أنّ صوتي لن يتسلّل خلسة إليك... ؟

هل أزلت من الجدار كل الصور التي تجمعنا معا... وحتى تلك التي في الذاكرة.. أزيليها ولا تتركي شيئا منّي لديك...

هل نزعت خاتمي من يديك ؟

وطبعا أكيد أنّك قد غسلت حتى عينيك.. فمن يدري لعلّ مشهدا لي يبقى عالقا هناك...

إفعلي كل هذا ولكن تأكدي أنّنا لن نفترق..

ولكننا كذلك لن نلتقي..

سيبقى يفصل بيننا جدار..

سيبقى حبّنا تحت الحصار..

وأحلامنا التي حلمناها معا..

وقبلاتنا التي زرعناها ذات يوم على السرير..

وكل تلك السّاعات الطوال التي قضيناها ليل نهار..

ضعيها كلها تحت عجلات القطار..

وبالطبع كوني متأكدة أنّها أبدا لن تموت..

وصدقيني أيضا لن تعيش..

ستبقى مثلنا في احتضار..

هل أغلقت الباب جيدا عليك..

هل استنفذت كل دمعة لديك..

أرجوك لا تبك عزيزتي..

فأنا وأنت لن نفترق..

ولكننا أيضا لن نلتقي..

لأنّك بكلّ بساطة لن تستغني عليّ

ولن أستغني طبعا عليك

لا تبكي رجاء يا عزيزتي..

فأنت أغلى ما لديّ..

وأنا أغلى ما لديك..

عزيزتي كوثر...كلما حاولت أن أنساك أجدني أتعلق في خيوط ذكراك أكثر.. أسير في الشوارع والأزقة مهرولا هاربا من وجهك المختبئ في الذاكرة... من ابتسامتك التي تشبه ابتسامة الفَراش.. من نظراتك وأنت تحركين بؤبؤ عينيك ذات اليمين وذات الشمال وتتطلعين إليّ كطفلة تحاول رسم تفاصيل وجه والدها في الذاكرة..

عبثا أحاول الفرار من ذكراك.. فأراك في وجوه المارة.. وعلى اللوحات الإعلانية.. أطمر عينيَّ في الأرض حتى لا أراك.. فيمتلكني الفزع وأنا أراك تمدين ذراعيك على الإسفلت وكأنك تستعدين للارتماء في حضني كما كنت تفعلين ذات أزمنة وأمكنة..

بالله عليك ارحميني.. أخبريني كيف ينسلخ الجلد عن الجسد دون ألم أو دماء؟

قد تحكم الأقدار على أجسادنا أن تفترق عن بعضها إلى الأبد.. لكن صدّقيني أنّ أرواحنا لا يتحكّم في حبها القدر.. إنّها ترفرف في بساتين الحبّ كلما

أغمضنا أعيننا واستسلمنا للنوم أو غفونا أو شردنا.. عودي إليّ فأنا لم أعد هو أنا.. كل شيء فيّ تغيّر.. ابتسامتي غابت منذ غبت عن عيوني.. وهذا البياض صار يحتلّ رأسي فلا أقاوم.. حتى أسماء الشوارع والأزقة وأرقام الحافلات والهواتف لم أعد أميّز بينها.. عودي إليّ قبل أن أفقدني أكثر.. عودي قبل أن تأتي فلا تعثري إلاّ على ذكراي... عودي فحين نكون معا عزيزتي فقط.. يمكن للشمس أن ترتمي في حضن المحيط دون أن تغرق أو تتبلّل...".

صعدت سيارتي لا أعرف أي طريق أسلك، ولا الوجهة التي أقصدها، فكل الأزقة والشوارع والأمكنة التي أعبرها أرى فيها وجه كوثر. كنت أرى وجهها في وجوه المارة.. وفي عيون كل عاشقين يلتصق جسداهما رغبة في حفنة دفء أو شربة انتشاء وسعادة.. لم أعد أعرف من يقود الآخر.. هل أنا من يقود السيارة أم السيارة هي من تقودني بعدما تأكدت أنني صرت عاجزا تماما على أن أحدد وجهة أقصدها ..

أقسى أنواع الضياع هو أن تضيع داخل متاهات روحك التكلى، تقلّب صورا تشبهك ذات عمر، تتسلق حافة الذكرى أملاً في أن يلوح لك بصيص ضوء يذلك على منفذ الإغاثة، كل الحافلات فيها منفذ إغاثة إلاّ حافلة الحياة.. تبقى في جوف روحك تائها تبكي بحرقة دون أن يخرج من حلقك صوت.

❖❖❖

ابتلعتني ظلمة النفق الذي يمر أسفل المدار الطّرقي المحادي لمسجد الحسن

الثاني، كانت السيارة تقودني ببطء داخل النفق كمن يعبر بطن حوت.. يترآى لي نور مخرج النفق من بعيد.. فأتمنى لو يستمر النفق مسافة أبعد، أصبحت أخشى من الضوء، فكل يوم لن ترى فيه عيني كوثر لا يجب أن تشرق شمسه. سرت على طول الطريق المؤدي إلى كورنيش عين الذئاب، وصوت إليسا ينبعث من مكبر صوت السيارة باردا حزينا :

حبك وجع.. بعده معي..
حبك حلم هربان..
من قلب قلبي انسرق..
وبكيت عَ غْيابه..
مَطرحْ ما كنا نحترق..
صار الجمر بردان..
وحدي بدونك ما قدرت..
ما أصعب الحرمان..
...

❖❖❖

ركنت سيارتي في مرآب مطعم ماكدونالدز، وانزويت جالسا على أحد الكراسي المطل على البحر. أخرجت هاتفي من جيب سترتي وفتحت ملف الصور، كانت تقبلني وهي تدفع صغيرنا سيمو كي لا يظهر في الصورة وقد ارتسمت على محياها ابتسامة اعرض من وجه هذا المحيط

الممتد أمامي.. كان طفلانا ضرتها التي تسرق منها كل مساحات الخلوة التي كانت تحجزها لي.. تشتمهما أحيانا.. وتغلق الباب في وجههما أحيانا أخرى وهما يقهقهان بصوتهما الطفولي ويقفزان كعصفورين يتعلمان أولى مبادئ الطيران .. وكلما حاولَتْ إبعادهما أكثر كلما زاد إصرارهما على إفساد خلوتها في معبد الحب الذي يجمعنا.

أتنقل بين الصور التي تجمعني بها.. كل صورة منها تحكي قصة أو حكاية.. أصغي لبعضها فتخونني عيناي.. جدار رموشي ما عاد يستحمل مزيدا من الضغط.. تتزحلق قطرات على خدي قبل أن تنتحر على الطاولة.. لماذا لا أكون شجاعا مثل هذه القطرات وأتزحلق أنا أيضا من أعلى الجدار الفاصل بين مسجد الحسن الثاني والجرف الصخري فأنتهي زبدا على الشاطئ ؟

❖❖❖

ضجيج قهقهات يعلو تارة هنا، وتارة هناك. كل الوجوه المحيطة بي تبتسم. أيعقل أن يكون العالم كله سعيد إلا أنا.. صوت طفل ينادي بالقرب مني يسرق عيناي:

-بابا ... بابا...

آه ما أشد وقع هذه الكلمة.. وكأن هذا الطفل يقص آخر شعرة كانت تربطني بحالة الوعي فأضيع في خضم اللاوعي.. أنتحب بقوة فتهتز كل أركاني كبناية قديمة يضربها زلزال.. صوت أزيز بكائي يجعلني مرمى لأعين كل من يجلسون على مقربة مني، فيعم صمت قاتل في المكان.. وتتوقف حالة

الصخب التي كنت أسمعها قبل ثواني. كل العيون تتطلع إلي بأسى.. لم يكن بإمكاني حينها أن أوقف هيستيريا البكاء التي اجتاحتني.. آه لقد مرت ثلاثة أشهر على آخر مرة رأت فيها عيناي حبيباي سيمو وإيمي.. أشتاق لذلك الحضن الذي كان يحتويني كلما فتحت الباب عائدا من العمل، فأجمل ما في أحضان الأطفال أنها تمسح ما علق بالإنسان من أوساخ الدنيا وتضمد جراحها في زمن وجيز ...

تغادرني هيستيريا البكاء بعد أن فضحتني أمام هذه الأعداد الكبيرة ممن حولي، أجول بعيني على عيونهم، فأشعر وكأنها تلتهمني التهاما. ماذا تراهم يقولون الآن عني.. ؟

-هجرته حبيبته ولم يستحمل..
-مات أحد مقربيه ولا يطيق الفراق...
-سكران أو أنه تحت تأثير مخدر ما...
-مريض نفسي شفاه الله...

دعهم يقولون ما شاءوا.. إنهم لا يعنوني في شيء.. المهم أن لا يكون بينهم أحد من معارفي، أعاود التطلع على وجوههم جميعا لأتأكد أنه لا احد من معارفي بينهم، تم أقوم مغادرا بخطى ثقيلة كمن يخرج من قاعة عمليات لتوه، أشعر وكأن جسدي كله جراح.. بالكاد أستطيع رفع قدماي، أسير على امتداد رصيف الكورنيش. الظلام بدأ ينشر جناحه على المكان.. أجساد بعض العشاق الملتصقة على الشاطئ تبدو من بعيد كأشباح تمارس الحب..

أنزل للرمال متوجها نحو مياه البحر.. أشعر بتعب كبير ولا أقوى على السير أكثر.. غير أنّ شيئا ما بداخلي يحرّضني على المسير، لا أعرف كيف لم أشعر ببرودة الماء يومها وأنا الذي أخشى برودة الماء، كان جسدي ينزل في الماء شيئا فشيئا.. أرمي ببصري بعيدا على امتداد المحيط الغارق في الظلام.. أرى زينب ويوسف والمهدي يلوّحاني لي بيديهما من بعيد.. أشعر بالماء يتسرب إلى جوفي محدثا نضيضا بالكاد تسمعه أذناي اللتان ملأهما الماء أيضا.. أصوات تتعالى خلفي وصوت صياح وصراخ :

- سيموت... فليتصل أحدكم بالوقاية المدنية
- إنّه ينزل إلى القعر.. اتصلوا بالوقاية المدنية
- إحمله معي واحذر حتى لا يبتلع لسانه..
- ضعه هنا على جانبه
- إنه يمسك شيئا ما في يده
- إنها صورة له مع زوجته على ما يبدو وطفليه..
- مسكين..
- .....

النهايـــة